السكاكي في كتابات البلاغيين المحدثين

الأستاذ الدكتور

عبد المنعم السيد الشحات رزق

أستاذ ورئيس قسم البلاغة والنقد المساعد

في كلية الدراسات –دمياط الجديدة

ملخص البحث

فكلما وقعت عيني على كثير مما كُتِب حول العلامة (السكاكي)، ألفيته يسلط الضوء على المعايب والمآخذ، ويتهمه بما يمكن أن يلام به ذلك العلامة الفذّ، ويغفل عن حسناته _وهي كثيرة_، وعن إضافاته لعلم البلاغة والنقد _وهي غزيرة.

ولعل هذا وغيره جعلني أمسك القلم وأغوص في فكر العلامة (السكاكي)، وأعاود قراءة حياته، ونشأته وثقافته، والمنهج الذي استحدثه، ثم أختم ذلك كله بقراءة ما دار حوله من نقد في عصرنا.

وكان يمكن لهذا البحث أن يكون في مئات الصفحات، لأنه طويل يستحق أن نقف أمامه، لولا المخافة من سآمة القارئ وملله، وتكرار ما قاله غيرنا، كما إن التزامنا بعدد من الصفحات حال دون ذلك؛ لذا فإني سأحاول _جاهدًا_ أن أوجز الكلام إيجازًا، راجيًا من الله أن لا يكون مخلاً.

Research Summary

Every time my eye falls on much of what was written about the mark (al-Sakaki), its millennium sheds light on the defects and the faults, and accuses him of what can be blamed for that remarkable sign, and overlooks the benefits of many, and its additions .to the science of rhetoric and criticism is abundant

Perhaps this and other made me hold the pen and plunge in the thought of the tag (Sakaki), and reread his life, and its inception and culture, and the methodology that he developed, and then conclude it .all by reading the criticism around him in our time
This search could have been in hundreds of pages, because it is long to stand in front of it, had it not been for the fear of the reader's trust and the repetition of what others have said, and our commitment to a number of pages has prevented it. So I will try to summarize the words concisely, God .not to be disrespectful

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم لا مفر منه

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين وأبلغهم، صلاة وسلامًا عليه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد،

فكلما وقعت عيني على كثير مما كُتِب حول العلامة (السكاكي)، ألفيته يسلط الضوء على المعايب والمآخذ، ويتهمه بما يمكن أن يلام به ذلك العلامة الفذّ، ويغفل عن حسناته _وهي كثيرة_، وعن إضافاته لعلم البلاغة والنقد _وهي غزيرة.

وقد نقبت عن السبب وراء هذا النقد، وعن الغرض من تشويه هذا العالم، وطمس جهده وأثره الذي لا يُنْكَر، فلم أجد سوى التواكل والتكاسل، إذ ما هُم إلا باحث عرض رأيًا وسار الكل في ركابه دون وعي، ودون تمحيص.

لا أقول هذا من باب التطاول على أحد أو الغمز به، كيف وأنا أقدر جهد من كتبوا، وأعتز بآرائهم في كثير مما كتب لهم، إلا عند حديثهم عن (السكاكي)، وكأنهم لا يريدون للسكاكي علمًا، ولا يعترفون به عالمًا، وإنما _من وجهة نظرهم_ ما هو إلا رجل جنى على البلاغة والبلاغيين.

وإن أردت شاهدًا واحدًا لصدق ما أقول، وكنتُ مكذَّبًا لي فيما ادعيت، وتصفني بالتطاول على العلماء، والغمز واللمز بمن هم أعلى منزلة

مني في العلم، فأعترف لك بالشق الثاني من كلامك، لكني لا أقر لك التطاول والغمز، كيف وهم أساتذة أفذاذ، وأنا الفقير في هذا الفن؟!.

ولعلك تصدق ذلك حينما تقرأ كلام واحد ممن كتب ليدافع عن (السكاكي) فهاجمه، وألّف ليبين جهده ومحاسنه، فتغافل عنها، وظل يكيل له الاتهامات، إنه أستاذنا، الدكتور/ أحمد مطلوب، فقد نشأ على مدرسة (السكاكي)، وتتلمذ على مؤلفاتها.

حيث وضع بحثًا حصل به على درجة الماجستير عن (السكاكي)، هو (البلاغة عند السكاكي)[١]، وآخر حصل به على درجة الدكتوراه، عن مدرسة (السكاكي)، وهو: (القزويني وشروح التلخيص)[٢].

والغريب والعجيب أنه من أول وهلة يهاجم هذه المدرسة وأستاذها (السكاكي)، وينعتها بالخطأ والجمود.

وقد وصل به الأمر إلى أن وصفها بالوقوع في أخطاء لغوية ونحوية، مما جعل الأستاذة الدكتورة/ سهير القلماوي _وهي المشرفة على بحثه آنذاك_ تقول: "ولقد ظلم أحمد مطلوب (السكاكي) نوعًا ما، حينما جعله المسؤول عن جفاف هذه الدراسة التي نتجت عن جفاف الكتاب نفسه، ولكن الواقع أن البلاغة والنقد الأدبي لابد أن يمر في هذه الأطوار دائمًا، بداية فطرية قوية مبعثرة، ثم دراسة حية مؤثرة، وأخيرًا خلاصة وتقنين، وتقعيد جاف يؤدي بحيوية النظرية أو الفكرة أو الناحية المدروسة.

---

[١] البلاغة عند السكاكي، د/ أحمد مطلوب، ط١، ١٩٦٤م، طبع بمطابع دار التضامن بلبنان، بغداد، ط١.

[٢] القزويني وشروح التلخيص، طبعة دار التضامن بلبنان، بغداد.

إن هذه هي سنة الحياة في الأبحاث الأدبية والفنية، كل ما في الأمر أن مَعِين الطور الأول طور العفوية والحيوية الفطرية الغامضة المبعثرة، هو الذي نضب لأسباب معروفة إبان عصر (السكاكي) وبعده، وليس أحدًا _من يكون_ هو المسؤول عن ذلك، وإنما المسؤول أمة بأسرها، وظروف في جملتها.

إن (السكاكي) قدم في عصره وبكل إخلاص العالِم الدائب المتأثر بروح العصر _وما كان له إلا أن يتأثر_ أقصى ما يمكن أن يقدمه عالم دارس في سبيل علم من العلوم"[١].

ولقد كانت الدكتورة/ سهير القلماوي رحيمة بالدكتور/ مطلوب، حينما وصفته بالظالم فحسب، ويكفي أن تقرأ له كلامه عن تلميذ من مدرسة (السكاكي)، وأحد شراح الشافية والكافية في علم النحو، إنه عصام الدين الإسفراييني، صاحب السفر العظيم (الأطول)، يقول الدكتور مطلوب عنه وعن كتابه: "ولا تجد هذا السخف في الشروح التي عرضناها سابقًا، ولا نجد عندهم الاعتماد على النصوص الفارسية لتوضيح قاعدة بلاغية.

ثم يقول: "ويتصف الشرح (الأطول) بعد هذا كله بأنه ركيك العبارة، فيه أخطاء لغوية، ونحوية كثيرة، وفيه تعقيد"[٢].

---

[١] مقدمة الدكتورة/ سهير القلماوي في كتاب (البلاغة عند السكاكي)، ماجستير، د/ أحمد مطلوب، ص١٢.

[٢] القزويني وشروح التلخيص، د/ أحمد مطلوب، دكتوراه، ص٦٠٠.

وليس عندي ما أرد به على الدكتور مطلوب، فهو أستاذ كبير، وأنا الفقير في هذا العلم، ويكفي ما قالته الدكتورة/ سهير في مقدمة رسالته، ولو أطلقت لقلمي العنان في الرد عليه؛ لندمت أشد الندم؛ لأني وقتها لن أرد على الدكتور/ مطلوب، وإنما سأفند كلامه، وسأتهمه بعدم قراءة عشر صفحات من (الأطول) للعصام، حتى يحكم هذا الحكم الجائر.

فقد قمت بتحقيق (الأطول للعصام) في (٤٢٠٠ صفحة)، في مجلدات ثمانية، وقرأته جيدًا، وأزعم أنه مدرسة وحده، وأنه يفوق أقرانه؛ حيث أوتي عقلاً خصبًا، وذكاءً يفوق الدكتور/ مطلوب، وغير الدكتور مطلوب.

وما كان لسيادته أن يطلق مثل هذا الكلام لمجرد كرهه للسكاكي، ومدرسة (السكاكي) . ولست أدري إذا كان الدكتور/ مطلوب يصرح هكذا باتهامه للسكاكي ومدرسته؛ فلِمَ ألّف بحثين أو رسالتين في (السكاكي) و(القزويني)؟!.

ولست أدري كيف استطاع الدكتور/ مطلوب _وهو العالم_ أن يقول مثل هذا الكلام عن عالم في اللغة والنحو، وشارح للشافية والكافية.

لقد استطاع الدكتور/ مطلوب _مبكرًا_ أن ينفر جيلاً بأكمله من (السكاكي) ومدرسته، فبدلاً من قراءة هذه الكتب والصبر على فهمها، ومعاودة قراءتها مرات؛ للكشف عن الدرر التي ما زالت مدفونة إلى الآن في هذه الشروح، أقول: بدلاً من ذلك ظل يقلب الصفحات فحسب، ويكيل الاتهامات للسكاكي وأقرانه. ولنا وقفة مع الدكتور/ مطلوب في الفصل الثالث من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

ولعل هذا وغيره جعلني أمسك القلم وأغوص في فكر العلامة (السكاكي)، وأعاود قراءة حياته، ونشأته وثقافته، والمنهج الذي استحدثه، ثم أختم ذلك كله بقراءة ما دار حوله من نقد في عصرنا.

وكان يمكن لهذا البحث أن يكون في مئات الصفحات، لأنه طويل يستحق أن نقف أمامه، لولا المخافة من سآمة القارئ ومللـه، وتكرار ما قاله غيرنا، كما إن التزامنا بعدد من الصفحات حال دون ذلك؛ لذا فإني سأحاول _جاهدًا_ أن أوجز الكلام إيجازًا، راجيًا من الله أن لا يكون مخلاً.

ولا مفر من التنبيه على أمر في غاية الأهمية، وهو أني حينما عنونت لهذا البحث بـ(السكاكي في كتابات البلاغيين المحدثين)[1]، لم أكن أعني بذلك كل من أشار إلى (السكاكي) ومدرسته في إيجاز، أو كان كلامه عنه مجرد إشارة، وإنما أردت من كانت له وقفة مع (السكاكي) في تأليفه.

كما أني لم أكن أعني بذلك التغافل عن الجهود التي كتبت عن (السكاكي) ومدرسته، من علماء أفذاذ، كما إنه لا يجب أن يُفهم كلامي على أني أستطيع في هذه الصفحات القليلة أن أُخرج كل ما في فكر (السكاكي)، كما إنه ليس من خطتنا الوقوف أمام كل ما كتب عن (السكاكي)؛ فهو كثير.

على أن لي كتابًا ضخما عنوانه: (قراءة جديدة في فكر الإمام السكاكي)، أقوم بكتابته الآن - في خمسة أجزاء - ، أعرض فيه كل ما كتبه (السكاكي)، فهو يعد شرحًا مفصلا لكتاب (مفتاح العلوم للسكاكي) ودراسة له من كل جوانبه ،وقد حاولت أن أخرجه في ثوب قشيب ، حيث استغرق

[1] ليس كل البلاغين المحدثين؛ فهناك من أنصف (السكاكي) _على ما سيأتي.

مني ردحًا من الزمن ، كما هو الحال مع كتاب (الأطول) لعصام الدين الإسفراييني ، فقد أضعت في قراءته وتحقيقه نصف عمري ، وأضعت النصف الآخر مع العلامة السكاكي صاحب كتاب (مفتاح العلوم) ، وكنت أظن أن العمر قد ضاع بلا فائدة ،لكني بقراءة الكتابين ،وفهم مراد المؤلفين ،والغوص في حياتهما وفكرهما أجدني قد حصلت على الكثير وتعلمت واستفدت الكثير ، إذ أن قراءة كلام العلماء وفهمه والصبر عليه وتعلمه وتدبر مراد صاحبه = علم لا يؤتي لكل أحد .

فقط في هذه الصفحات سنقرأ هنا حياة (السكاكي) ومنهجه وما دار حوله من نقد في إيجاز، وسيجيب هذا البحث عن السر وراء نقد (السكاكي) ومدرسته، واتهامه بالجناية على البلاغة.

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يكون في مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة.

الفصل الأول: قراءة في حياة السكاكي

الفصل الثاني: قراءة في منهج السكاكي

الفصل الثالث: السكاكي في كتابات البلاغيين المحدثين

والخاتمة، وتتضمن أبرز النتائج التي توصل إليها الباحث.

وفهارس: وتتضمن فهرسًا للمراجع وآخر للموضوعات.

ولا أقول إلا كما قال (ابن سنان) من ذي قبل، إذ لست أدعي السلامة من الخلل، ولا العصمة من الزلل، وأعترف بالتقصير، وأسأل من

ينظر في عملي هذا بسط عذري، والصفح عما لعله يثيره علي، فإني سلكت فيه مسلكًا صعبًا.

وبعد، فهذه بضاعتي أضعها بين يدي أساتذة أقدرهم وأعتز بآرائهم، فما رددتموه فعجز وجهل مني، لكنه _على كل حال_ ليس تقصيرًا أو إهمالاً، أو تطاولاً، وما قبلتموه ففضل آتاني الله إياه.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

دكتور/ عبد المنعم السيد رزق

الأستاذ المساعد بقسم البلاغة ورئيس القسم -بدمياط الجديدة

الفصل الأول

(قراءة في حياة السكاكي)

*السكاكي في أول حياته

اختلفت حياة (السكاكي) الأولى، كما اختلفت عقليته، وكما اختلف فكره وتأليفه، واختلفت نشأته، فبينما نقرأ عن أي عالم من العلماء أنه حفظ القرآن في طفولته، أو كان يغلق على نفسه المكتبات _كما كان يفعل الجاحظ_ فلم يكن (السكاكي) هذا ولا ذاك.

فلم يعكف (السكاكي) على قراءة الكتب منذ طفولته، ولم يقرأ لهذا أو ذاك، بل كانت حياته لا تختلف عن حياة أي شخص خامل الذِّكر، يعيش دون هدف، فلم يكتشف (السكاكي) أنه ذو عقلية متميزة إلا متأخرًا.

إذن فلابد أن نتفق على أن (السكاكي) كان يعيش في مقتبل عمره طفولة عادية، لا تختلف عن طفولة أحد ممن يعيشون معه، فلم يكن متميزًا، ولم يهتم به أحدٌ مبكرًا، ولم ير أحد فيه نبوغًا ولا ذكاء.

حياة (السكاكي) الأولى غامضة كعقليته، وربما كان سبب غموض هذه الفترة ناشئًا من عدم اهتمام أحدٍ به اهتمامهم بالأبناء النابهين، ويكفي أن تقرأ لأحد المؤرخين الكبار، وهو معاصر للسكاكي يكتب عنه وعن حياته ثلاثة أسطر، يقول (ياقوت الحموي)، في كتابه: (معجم الأدباء): "يوسف بن أبي بكر بن محمد أبو يعقوب السكاكي: من أهل خوارزم، علامة إمام في العربية والمعاني والبيان والأدب والعروض والشعر، متكلم فقيه متفنن في علوم شتى، وهو أحد أفاضل العصر الذين سارت بذكرهم الركبان، ولد سنة

أربع وخمسين وخمسمائة، وصنف «مفتاح العلوم» في اثني عشر علمًا أحسن فيه كل الإحسان، وله غير ذلك، وهو اليوم حيّ ببلده خوارزم"[١].

وكلام صاحب معجم الأدباء السابق، كلام مقتضب، يمكن أن يكتب عن أي شخص، كتبه ياقوت مرارًا وتكرارًا عن آخرين.

ولعل أول ما يلفت انتباهنا، أن (ياقوت) نفسه _وهو المعاصر له_ لا يعلم شيئًا عن حياته الأولى، وأنه لم يقل مثل هذا الكلام عنه إلا بعد أن ذاع صيت (السكاكي) بتأليفه (مفتاح العلوم)، ويظهر هذا من قوله: "وصنف «مفتاح العلوم» في اثني عشر علما أحسن فيه كل الإحسان". وهذا أكبر شاهد على أن حياة (السكاكي) الأولى كانت حياة خاملة، ليس فيها أي شيء، فهو طفل نشأ كغيره، لم ير أحدٌ فيه نبوغًا، ولم يكتشف أحدٌ تميز عقله، حتى والده لم يدرك ذلك.

*عمل (السكاكي) سبب شهرته

حينما قرأت أن (السكاكي) كان يعمل في أول حياته (حدّادًا) فقد كان صانعًا يشتغل بالصناعات الحديدية اليدوية، وأنه ظل هكذا لفترة طويلة جدًّا _تعجبت، ولم يكن بسبب أنه يعمل (حدّادًا)، وإنما لأنه ظل يعمل بعيدًا عن العلم حتى الثلاثين من عمره.

---

[١] معجم الأدباء=إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت:٦٢٦هـ)، تح: : إحسان عباس: ٦/ ٢٨٤٦. دار الغرب الإسلامي، بيروت ط١، ١٤١٤ هـ-١٩٩٣م.

رجل نابغ، راض البلاغة رياضة الحاذق؛ فدنا له قصيها، ودان له عصيها، وذلل أوابدها، وملك فرائدها، وظل يعمل (حدّادًا) حتى ضاع من عمره ثلاثين عامًا، فهل يمكن أن يصدق مثل هذا الكلام؟!.

نعم، اتفق كل من ترجم له على ذلك، ويجب أن نصدق نحن ذلك؛ لأني كما قلت في أول حديثي، أن حياة (السكاكي) كعقليته ونبوغه.

لقد تفرد (السكاكي) في كل شيء، حتى حينما أراد تحصيل العلم، ظل بعيدًا عنه حتى مضى من عمره ثلاثون عامًا، لكن لأنه (السكاكي)، فحينما أراد ذلك كان له ما أراد، فقد وهبه الله عزيمة نادرة، وإرادة ثابتة، وإذا كان (السكاكي) قد ظل يعمل (حدّادًا) حتى الثلاثين من عمره؛ فإن عمله هذا كان سبب شهرته، وسر عبقريته.

لم يكن (السكاكي) _على ما أعتقد_ يعمل حدّادًا كغيره من أصحاب مهنته، لكنه يعمل عقله، ويتفنن في عمل الحدادة. والقصة التي تروي عنه تؤكد ذلك:

ففي كتاب (روضات الجنات)، يقول الخوانساري: "والإمام (السكاكي) كان من جملة فضلاء الدهر والعلماء العالية المنزلة والقدر، ماهرًا في العلوم الغريبة. وكان في مبدأ أمره حدّادًا، فعمل بيده محبرة صغيرة من حديد، وجعل لها قفلاً عجيبًا، ولم يزد وزن تلك المحبرة وقفلها عن قيراط واحد، وأهداها إلى ملك زمانه، ولما رآه الملك وندماء مجلسه الرفيع لم يزيدوا على الترحيب بالرجل على صنعته، فاتفق أنه كان واقفًا في الحضور، إذ دخل رجل آخر، فقام الملك احترامًا لذلك الرجل، وأجلسه في مقامه، فسأل عنه (السكاكي)، فقيل:

إنه من جملة العلماء، فتفكر (السكاكي) في نفسه أنه لو كان من هذه الطائفة لكان أبلغ إلى ما كان يطلبه من الفضل والشرف والقبول، وخرج من ساعته إلى المدرسة لتحصيل العلوم، وكان إذ ذاك ذهب من عمره ثلاثون سنة، فقال له المدرس: لعلك في سن لا ينفعك فيه التعليم، وأرى ذهنك مما لا يساعدك على أمر التحصيل، فلابد فيما هنالك من الامتحان.

ثم أخذ يعلمه هذه المسألة التي هي من اجتهادات إمامهم (الشافعي)، وقال له: قال الشيخ: جلد الكلب يطهر بالدباغة، وجعل يكرر هذه العبارة عليه إلى أن بلغ ألف مرة، ثم لما جاءه من الغد طلب أن يحاكي درس أمسه الذي لقنه ألف مرة، فقال (السكاكي): قال الكلب: جلد الشيخ يطهر بالدباغة، فضحك منه الحاضرون. وعلّمه (الأستاذ) شيئًا آخر، وهكذا إلى أن مضى من عمر (السكاكي) في ذلك التعب في أمر التحصيل عشرة أعوام، فيئس من نفسه بالكلية، وضاق حلقه. فخرج إلى البراري والجبال، فاتفق أنه كان يتردد يومًا في شعب الجبال، إذ وقع نظره على قليل من الماء يتقاطر من فوقه على صخرة صماء، وقد ظهر فيها ثقبة من أثر ذلك التقاطر على عهد بعيد، فاعتبر من نفسه بهذه الكيفية، وقال: ليس قلبك بأقسى من هذه الصخرة، ولا خاطرك بأصلب منها حتى لا يتأثر بمراقبة التحصيل.

ورجع ثانيًا إلى المدرسة بعزمه الثابت، وتصمم في الأمر إلى أن فتح الله عليه أبواب العلوم والمعارف والأفنان، وحاز قصب السبق على جميع الأماثل والأقران من العلماء والأعيان"[١].

---

[١] روضات الجنات: ٤/ ٢٣٨. ومعجم المطبوعات، يوسف سركيس: ٢/ ١٠٣٢.

تعمدت نقل القصة كاملة لأنها تصور شخصية (السكاكي)، وعزمه الثابت، وإصراره على طلب العلم، وعدم يأسه، ويمكن أن نفهم من هذه القصة التى نقلها الخوانساري ويوسف سركيس في معجم المطبوعات الآتي :

أولاً: إن عمل (السكاكي) كان سببًا في شهرته؛ حيث إنه كان يتفنن في عمله ويتقنه، لدرجة أنه حينما طلب منه عمل محبرة صغيرة، تفوق على نفسه، وأبهر الملك والجالسين بإتقان صنعته.

ثانيًا: إن (السكاكي) رجل طموح منذ نشأته، حيث لفت نظره إجلال الملك وإكباره لرجل آخر لم يهد الملك شيئًا، ولم يتفوق في شيء، لكنه من جملة العلماء.

أدرك (السكاكي) حينذاك فضل العلم والعلماء، فتحولت حياته وقتها من التفنن في صنعة الحدادة إلى طلب العلم.

ثالثًا: لم يدرك (السكاكي) _لأنه رجل طموح_ أنه قد تأخر كثيرًا، وأنه يصعب عليه _بل ربما يستحيل_ أن يغير صنعته إلى أن يصبح طالبًا للعلم _فضلاً عن أن يكون عالمًا_ فصمم على طلب العلم والبحث عنه، وكادت نفسه أن يسيطر عليها اليأس، لولا ما حدث له.

يقول الدكتور/ مطلوب بعد نقله هذه القصة: "هذه القصة وإن كانت تدل على ثبات العزيمة وقوة الإرادة، فإننا نجد فيها مبالغة صيغت بأسلوب يكاد يكون أسطوريًا، فليس من المعقول أن يكون (السكاكي) على هذا

الغباء، وهو ممن بنوا بناءًا ليس باليسير في علوم اللغة العربية، وفي البلاغة التي كان فيها رأس مدرسة لها منهجها وأصولها"[١].

وأقول : بل هذا هو المعقول، والذي يمكن أن يستوعبه العقل ويقبله، وماذا تنتظر من رجل يطلب العلم بعد أن مضى من عمره ثلاثون عامًا فأكثر؟!. فالمعقول هو التعسر واليأس، وأما غير المعقول فهو الإلحاح في طلب العلم، والتصميم عليه، كما فعل (السكاكي).

(السكاكي) إذن هو من اكتشف عبقرية نفسه، وهو من أصر على إظهار نبوغه، هو وحده، وليس بمعاونة أحد له، أو مساندة أستاذ، لكنه حينما أراد أن يتعلم وأن يصبح متفردًا في علمه، ظل يبحث عن العلم، ولا يأبه بالفشل مرة أخرى، لكنه هضم ألوانًا من الثقافات، وأتى على كل طارف وتليد في العربية، حيث حاز فيها قصب السبق، وفاق أقرانه.

[١] البلاغة عند السكاكي، ماجستير، د/ أحمد مطلوب، ص٤٩. ولاحظ قول الدكتور مطلوب: (كان فيها رأس مدرسة لها منهجها وأصولها)؛ لتدرك الآن اعترافه بقيمة (السكاكي).

*تنوع ثقافة (السكاكي) وقلة مؤلفاته

لعل من العجيب والغريب أن نطلق هذا الكلام على رجل عرف العلم بعد الثلاثين من عمره، وبدأ يقرأ ويطلع ويستوعب بعد الأربعين من عمره، فأي ثقافة هذه التي يمكن أن تؤثر فيه، وهو لم ينشأ في طلب العلم، كما يفعل غيره من العلماء الأفذاذ العماليق؟!.

فهل يمكن لنا أن نصف (السكاكي) بأنه برع في اللغة التركية والفارسية؟! وأنه تفنن في العلوم العقلية والسحر؟! فضلاً عن إجادته للغة العربية بكل علومها وفنونها، وهل يمكن لنا أن نصدق أن (السكاكي) كان بجانب ثقافته اللغوية، كانت له ثقافته الكلامية والمنطقية والفقهية.

يقول صاحب معجم الأدباء عن ثقافته: "متكلم فقيه متفنن في علوم شتى، وهو أحد أفاضل العصر الذين سارت بذكرهم الركبان"[١].

ويقول صاحب (روضات الجنات): "واشتهر بعمل الأعاجيب من الصور والغرائب من المقاليد والأقفال، قبل تشرفه بفضيلة الاشتغال بالعلم"[٢].

تعلم (السكاكي) وتزود بثقافات متعددة هضمها واستوعبها في أقل من نصف عمره. أيّ عالم هذا؟! وأي رجل هذا؟!.

لقد أجمع كل من ترجم له على أنه بدأ التعلم بعد الثلاثين، وتعلم بعد الأربعين، فأي عقلية هذه التي استطاعت أن تستوعب كل هذه العلوم

---

[١] معجم الأدباء:٢/ ٥٩.

[٢] روضات الجنات: ٤/ ٢٣٨.

والثقافات!. ولعل ما أثار دهشتي أن (السكاكي) حينما ألّف كتابًا لم يؤلف في صنف من العلوم، لكنه ألف مفتاحًا للعلوم، على حد قوله.

حينما تقرأ كتابه تشعر أنك أمام رجل تتلمذ على الأفذاذ من العلماء، وقضى عمره كله في الاطلاع والقراءة.

(السكاكي) إذن رجل برع في كثير من الفنون، ولا يجب أن تسأل عن الكيفية؛ لأنك لن تستوعب ما يقال. هو فحسب عقلية لا توصف، أوتي عقلاً خصبًا، وذكاءً يميزه عن غيره ممن عاصروه.

لا مفر إذن من أن تصدق أن (السكاكي) هو جيل بأكمله _اتفقتَ معه أو اختلفتَ، فهمتَ ما يكتب أو لم تفهم_؛ لأنه يكتب بأسلوب عصره، وألّف على طريقة عصره، وقد ذُكر له مؤلفات قليلة، أشهرها وأعرقها سفره العظيم (مفتاح العلوم)، لكنه كما ذكر (ابن خلدون)[1] وغيره، فإن له كتاب (التبيان)، وكتاب (شرح الجمل)، وكتاب (الطلسم).

[1] مقدمة ابن خلدون، ص٥٥٢.

الفصل الثاني
(قراءة في منهج السكاكي)

***تقديم لا مفر منه:**

قلت سلفًا إن قراءتي لفكر (السكاكي) تحتاج إلى مجلدات؛ إذ الرجل قد ألف كتابه (مفتاح العلوم) في وقت قصير، وضمنه معارف وعلومًا شتى، تحتاج إلى كثير من الوقت، وكثير من الصفحات، لكنا مرغمون على الإيجاز، ومضطرون للاقتضاب، ليس لعجز في فهم كلام (السكاكي)، لكنّ طبيعة البحث تفرض علينا ذلك _كما قلت.

ويجب أن نفهم أنني سأعيد قراءة منهج (السكاكي) في كتابه كاملاً، لا جزء منه، فلا يجب أن نأخذ من الكتاب ونترك بحجة أننا نتحدث عن البلاغة، كيف و(السكاكي) نفسه لم يسم كتابه (مفتاح البلاغة)، وإنما كان مفتاحًا للعلوم- على حد قوله - ولا يجب أن يفهم قراءتنا لمنهجه أننا سنشرح ونفصل الكلام، بل سنضع نقاطًا، ونبين ونكشف كيف بنى (السكاكي) هذا الصرح العظيم (مفتاح العلوم)، وكيف استطاع أن يضع اللبنة بجوار اللبنة؟!.

وسنوضح علاقة هذه العلوم التي ضمنها كتابه ببعضها، وكيف له أن يقحم علومًا أخر، أحدثَت لبسًا وخلافًا عند من أتى بعده، وكانت سببًا في شن حرب عليه لم تتوقف إلى الآن.

على أنه لا مفر من التنبيه على أمر في غاية الأهمية، وهو أني لن أقرأ منهج (السكاكي) عن الذين كتبوا عن (السكاكي) من باب التيسير والكسل، ولكني سأفتح (مفتاح العلوم) وحده، وسأتجول فيه، وأحاول قراءة عقلية هذا الفذ، حتى لا أتهم بما اتهمت به غيري.

يقول المتوكل اللّيثي:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

*تقديم (السكاكي) لكتابه وبيان منهجه

حينما نفتح كتاب (مفتاح العلوم) للسكاكي، ندرك لأول وهلة دقته وتنظيمه ورؤيته لمنهجه، فقد عرض في مفتتح كتابه غرضه من تأليف كتابه، ومنهجه فيه، والسر في إقحام بعض العلوم، والسبب في ذلك، والعلة في توزيع الكتاب على أقسامه الثلاثة، وترتيب هذه الأقسام، والسبب فيها.

علينا أولاً أن نفسر كل ما سبق ونوضحه، حيث إن (السكاكي) قد صرح في البعض[١]، وألمح في البعض الآخر.

يقول العلامة (السكاكي) في مفتتح كتابه: "وقد ضمنت كتابي هذا من أنواع الأدب دون نوع اللغة ما رأيته لا بد منه، وهي عدة أنواع متآخذة"[٢].

وأول ما نلاحظه هنا في عبارة (السكاكي) أن المقصود بأنواع الأدب عنده: علم العربية، على ما صرح بذلك (السيد الشريف)[٣]. فالسكاكي قد ألّف كتابه ليكون مفتاحًا لعلم العربية _على حد قوله_ فمن الجور أن نتهم الرجل بإقحامه لبعض الفنون في علم البلاغة.

(السكاكي) إذن لم يؤلف كتابه في علم البلاغة _كما هو معلوم_ لكنه ضمن كتابه من أنواع الأدب ما رآه لابد منه، وهي عنده أنواع متآخذة متناسبة، وقد سبقه العلامة (الزمخشري) في الكشاف إلى تصنيف العلوم الأدبية إلى اثني عشر صنفًا: علم متن اللغة، وعلم الأبنية، وعلم الاشتقاق،

---

[١] أجاز (ابن جني) في كتاب الخصائص، دخول (أل) على بعض وكل.

[٢] مفتاح العلوم للسكاكي، ط البابي الحلبي، ص٤.

[٣] شرح مفتاح العلوم، للسيد الشريف، ص١.

وعلم الإعراب، وعلم المعاني، وعلم البيان، وعلم العروض، وعلم القوافي، وعلم إنشاء الشعر، وعلم قرض الشعر، وعلم المحاضرات.

إذن، إن أردنا أن نكون منصفين، فلابد من فهم كلام (السكاكي)، وأنه وضع مفتاحًا لعلم العربية، المسمى عنده بـ(علم الأدب). لكنّ الملاحظ أن صاحب المفتاح قد استثنى علمًا، وهو (علم اللغة)، وعُد إلى عبارته لتدرك ذلك، حيث يقول: "وقد ضمنت كتابي هذا من أنواع الأدب دون نوع اللغة... الخ". فهل هذا النوع ليس من جملة الأنواع المتآخذة؟! ولم استثناه؟!.

رأي حسام الدين المؤذني

يقول حسام الدين المؤذني عند شرحه كتاب (مفتاح العلوم، معللاً ترك (السكاكي) وإسقاطه علم اللغة من جملة العلوم التي ضمنها كتابه: "قول (السكاكي): (دون علم اللغة)، يعني: ما أورد من هذا النوع، وإن كان من جملة تلك الأنواع المتآخذة؛ لأن موضوع (الصرف): المفردات، وموضوع (النحو والمعاني والبيان): التراكيب، فيكون (علم اللغة) من جملة الأنواع المتآخذة بالضرورة، وإنما لم يورده؛ لأن إيراده لا يليق بهذا المختصر؛ لسعة دائرته"[١].

هذا ما قاله العلامة (المؤذني) عند شرحه (مفتاح العلوم)، ولا أرى أن العلامة (السكاكي) يسقط علمًا من علوم العربية؛ لأن إيراده لا يليق بهذا المختصر _كما زعم شارحه المؤذني، بل يمكن تعليل ذلك لإغناء علم

[١] شرح المؤذني على مفتاح العلوم للسكاكي، لحسام الدين المؤذني الخوارزمي، مخطوط، المكتبة الأزهرية، رقم: ١١٤٩ خاص_٤٣٦٠ عام، بلاغة لوحة رقم ٨.

الصرف والنحو عنه، أو لاكتمال علم العربية بدونه، لكن أن يكون ذلك لمجرد الاختصار فلا.

رأي العلامة (السيد الشريف الجرجاني) في (شرح مفتاح العلوم):

أو لعل التوجيه السديد ما صرح به شارح آخر _ضمنًا_ هو العلامة (السيد الشريف الجرجاني)، يقول في شرحه (مفتاح العلوم)، عند توجيهه تقسيم (السكاكي) لكتابه:

"وأقول: رتب كتابه على ثلاثة أقسام، وأردفها بتكملة وفنين. وتوجيهه: أن علم العربية -المسمى بعلم الأدب- علم يحترز به عن الخلل في كلام العرب لفظًا أو كتابة، وينقسم -على ما صرحوا به- إلى اثني عشر قسما، منها أصول هي: العمدة في ذلك الاحتراز، ومنها فروع.

أما الأصول: فالبحث فيها: إما عن المفردات من حيث جواهرها وموادها فعلم اللغة، أو من حيث صورها وهيئاتها فعلم الصرف، أو من حيث انتساب بعضها إلى بعض بالأصالة والفرعية فعلم الاشتقاق. وإما عن المركبات على الإطلاق: فإما باعتبار هيئاتها التركيبية وتأديتها لمعانيها الأصلية فعلم النحو، أو باعتبار إفادتها لمعان مغايرة لأصل المعنى فعلم المعاني، أو باعتبار كيفية تلك الإفادة في مراتب الوضوح فعلم البيان. وإما عن المركبات الموزونة: فأما من حيث وزنها فعلم العروض، أو من حيث أواخر أبياتها فعلم القافية.

وأما الفروع: فالبحث فيها إما أن يتعلق بنقوش الكتابة فعلم الخط، أو يختص بالمنظوم فالعلم المسمى بقرض الشعر، أو بالمنثور فعلم إنشاء النثر من الرسائل والخطب، أو لا يختص بشيء منهما فعلم المحاضرات، ومنه التواريخ. وأما البديع: فقد جعلوه ذيلا لعلمي البلاغة -لا قسما برأسه-".

ثم يقول: "فاختار المصنف الأصول، وترك منها اللغة؛ لأن مباحثها جزئية منتشرة -مع كونها مستقصاة في الكتب المبسوطة-، إلا أنه جعل القسم الأول من كتابه في الصرف، وخلط به الاشتقاق بأنواعه الثلاثة؛ لأن معرفة هيئات المفردات إنما تتم بمعرفة نسب بعضها إلى بعض أصالةً وفرعيةً، والقسم الثاني في النحو، وحكم بأن تمامه بعلمي المعاني والبيان، وذلك لأنهما يجريان منه مجرى اللب من القشر، لكنهما لكونهما المرجع في معرفة دقائق الكلام ومزاياه، والمرقاة المنصوبة إلى ذروة الإعجاز -مع كثرتهما أصولا وفروعا- أوردهما في القسم الثالث، وإنما جمعهما فيه لاتحادهما فيما هو الغرض منهما مآلا- أعني: البلاغة المكتسبة وما يتفرع عليها من توفية مقامات الكلام حقها، والترقي إلى الكشف عن وجوه الإعجاز-، ولكون البيان شعبة من المعاني.

وزعم أن علم الاستدلال جزء من علم البلاغة، إلا أنه -كما قال- مبني على التحقيق البحت، وتحكيم العقل الصرف، والتحرز عن شوائب الاحتمال بخلاف سائر أجزائه المبنية على لطائف المناسبات الخطابية المستخرجة بقوة القرائح، فلم يستحسن أن يكون معها فيقرن، ولا أن يجعل قسما على حدة، فأفرده عنها في تكملة للقسم الثالث.

وادعى أن التدرب في علمي المعاني والبيان يتوقف على ممارسة النظم المحوج إلى علمي العروض والقوافي. فجعلهما من تتمة الغرض منهما أوردهما في فن.

ولما رأى لبعض الجهال مطاعن في القرآن متعلقة بعلم النظم جعل دفعها فنا ثانيا من تتمة الغرض، فظهر أن علمي البلاغة هما الغاية القصوى يكملان ماذكر قبلهما ويستتبعان ما تأخر ذكره عنهما، وأن الكتاب -كما صرح به- منحصر في ثلاثة أقسام. لأن التكملة والفنين من تتمة القسم الثالث"[1].انتهى كلام السيد الشريف.

وقد تعمدت نقل نص كلامه كاملاً، دون التصرف فيه لأهميته، ويمكن لنا أن نفهم منه بعد قراءته جيّدًا، لماذا قسّم (ابن مالك) في المصباح، ومن بعده (الخطيب) في (الإيضاح) البلاغةَ هذا التقسيم.

فإذا كان (الشريف الجرجاني) قد وجه في كلامه سبب إسقاط (السكاكي) لعلم اللغة، وذلك عند قوله: "فاختار المصنف الأصول، وترك منها اللغة، لأن مباحثها جزئية منتشرة -مع كونها مستقصاة في الكتب المبسوطة...الخ"= فإن له بعض العبارات في تفسير منهج (السكاكي) جعلت كل من أتى بعده يهاجم (السكاكي) ويجور عليه.

والعلامة (الشريف) من أوائل من شرحوا (مفتاح العلوم) بعد العلامة (الشيرازي) و(التفتازاني).

---

[1] ينظر تفصيل ذلك في: شرح مفتاح العلوم للسيد الشريف الجرجاني، دكتوراه، لأستاذنا، الأستاذ الدكتور/ فريد محمد بدوي النكلاوي، ص٣.

ونعود إلى ما كنا فيه، فنقول: إن العلامة (الشريف) أدرك أن ترتيب (السكاكي) لمفتاحه مبني على تقسيم علم العربية عنده إلى أصول وفروع... ثم جعل المعاني والبيان من الأصول، ولما كان البديع على حد قوله من الفروع، جعله ذيلاً لعلم المعاني، ولست أدري من أين أتى العلامة (الشريف) بهذا التفسير العبقري؟!.

أليس هو يشرح كلام صاحب المفتاح، أم ماذا؟ ولماذا نحمل كلام (السكاكي) دلالات لا يتحملها؟ وما الداعي من وراء ذلك إذا كان كتاب المفتاح موجودًا وبين أيدينا، ولم يقله (السكاكي)؟!

بل العجب أن (السكاكي) لم يظهر في كتابه ما يسمى بـ(علم البديع) حتى يكون فرعًا أو أصلاً!.

رأي العلامة (الشيرازي) في كتابه: (مفتاح المفتاح) شرح مفتاح العلوم :

وقبل أن نفسر كلام (السكاكي) من المفتاح نفسه لا مفر من قراءة كلام شارحٍ آخر لكلام (السكاكي) في مقدمة كتابه، والسبب في ترتيبه على هذا النحو: إنه العلامة (الشيرازي) في كتابه: (مفتاح المفتاح)، يقول: "اعلم أن الأدب عند المصنف _رحمه الله_ يعني به العلامة (السكاكي)_ عبارة عن معرفة ما يحترز به عن جميع أنواع الخطأ في العربية، لفظًا ومعنى، خطابًا واستدلالاً.

إذ يحترز بعلم اللغة عن الخطأ في أنواع المفردات العربية، وبعلم التصريف عن الخطأ في التنويع من أصول أنواع المفردات، بل عن الخطأ في أحوال أبنية الكلم التي ليست بإعراب.

= وبعلم النحو عن الخطأ في التركيب لتأدية أصل المعنى مطلقًا... وبعلم المعاني عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره.

= وبعلم البيان عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه على ما يقتضيه الحال من وضوح الدلالة أو خفائها.

= وبعلم البديع عن الخطأ في طرق الفصاحة.

= وبعلم الاستدلال عن الخطأ في الأفكار.

= وبعلم العروض عن الخطأ في الأوزان"[١].

نص كلام السكاكي في المفتاح

كلام (الشيرازي) أقرب إلى الصواب، لكن علينا أن ننقل نص كلام العلامة (السكاكي)، ثم نقرأه جيدًا لندرك مرامه، يقول صاحب المفتاح: "وجعلت هذا الكتاب ثلاثة أقسام: القسم الأول: في علم الصرف، والقسم الثاني: في علم النحو، والقسم الثالث: في علمي المعاني والبيان.

والذي اقتضى عندي هذا: هو أن الغرض الأقدم من علم الأدب لما كان هو الاحتراز عن الخطأ في كلام العرب، وأردت أن أحصل هذا الغرض، وأنت تعلم أن تحصيل الممكن لك لا يتأتى بدون معرفة جهات التحصيل

[١] شرح مفتاح العلوم، المسمى (مفتاح المفتاح) للشيرازى، تح: أ.د/ نزيه فراج، دكتوراه، ص٢١.

واستعمالها، لا جرم أنّا حاولنا أن نتلو عليك في أربعة الأنواع مذيلة بأنواع أخر، مما لا بد من معرفته في غرضك، لتقف عليه ثم الاستعمال بيدك، وإنما أغنت هذه لأن مثارات الخطأ إذا تصفحتها ثلاثة: المفرد ،والتأليف ،وكون المركب مطابقاً لما يجب أن يتكلم له، وهذه الأنواع بعد علم اللغة هي المرجوع إليها في كفاية ذلك، ما لم يتخط على النظم، فعلما الصرف والنحو يرجع إليهما في المفرد والتأليف، ويرجع إلى علمي المعاني والبيان في الأخير، ولما كان علم الصرف هو المرجوع إليه في المفرد أو فيما هو في حكم المفرد ،والنحو بالعكس من ذلك كما ستقف عليه ،وأنت تعلم أن المفرد متقدم على أن يؤلف ،وطباق المؤلف للمعنى متأخر عن نفس التأليف ،لا جرم أنا قدمنا البعض على هذا الوجه وضعا لنؤثر ترتباً استحقته طبعاً"[1].

هذا هو نص كلام (السكاكي)، وعلينا أن نشرح كلامه، ونقرأ ما بين السطور لندرك مراده.

أول ما نلاحظه في كلام (السكاكي) هو تسميته للعلم الذي ألّف الكتاب من أجله بـ(علم الأدب)، ويبدو أن مفهوم (علم الأدب) عنده أشمل وأعم منه الآن، بدليل تفسير أحد الشراح أن المقصود به: (علم العربية).

ولعل العلامة (السكاكي) كان يبحث عن أدوات تمكن المتلقي من معرفة هذا العلم تامًا غير منقوص.

---

[1] مفتاح العلوم للسكاكي، ط البابي الحلبي، ص٥.

على أننا لو أمعنا النظر لألفينا تشابهًا كبيرًا بين منهج (السكاكي) ومنهج العلامة (ابن سنان الخفاجي) في كتابه الموسوم بـ(سر الفصاحة)؛ فبينهما عموم وخصوص؛ فالعلامة (الخفاجي) المولود في القرن الخامس الهجري ألّف كتابه من أجل معرفة (سر الفصاحة)، والتي هي الأساس في معرفة إعجاز القرآن، ومع أن صاحب (سر الفصاحة) مال في تحديد السر في إعجاز القرآن لرأى أستاذه (القاضي عبد الجبار)، لكنه سلك في سبيل ذلك طريقًا واضحًا لمعرفة سر العربية أو سر الفصاحة _على حد قوله.

ولذا فإنه في سبيل ذلك اتجه إلى التدرج في تأليف كتابه، حيث افتتحه بالحديث عن الصوت، ثم الحرف، ثم الكلمة، ثم التأليف والتركيب، ووضع شروطًا لكلٍّ على حدة _كما هو معلوم_ وعلى أساس ذلك وضع فصلاً في الأصوات، يليه فصل في الحروف ثم في الكلام في اللغة، وختم كتابه بالكلام عن الفصاحة وشروطها، وعن المعاني، ثم ذكر الفرق بين المنظوم والمنثور، وأخيرًا ما يحتاج مؤلف الكلام إلى معرفته[١].

وإذا دققنا النظر في كتاب (السكاكي) (مفتاح العلوم) ألفيناه يسير على نفس النهج، لكن بطريقته الخاصة، وطريقة التأليف في زمانه.

فإذا كان (الخفاجي) قد ألّف كتابه بغرض الوصول إلى سر الفصاحة، ومنها إلى نظم القرآن وإعجازه، فإن (السكاكي) من أول وهلة يؤكد على ذلك.

---

[١] ينظر تفصيل ذلك في: سر الفصاحة، للعلامة ابن سنان الخفاجي الحلبي (ت: ٤٦٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٢هـ_١٩٨٢م.

مما جعل العلامة أستاذنا الدكتور: فوزي السيد عبد ربه، يؤلف كتابًا قيّمًا عنوانه: (إعجاز القرآن ونظمه عند السكاكي)، أثبت فيه بالبراهين كيف أن الغرض الرئيس من تأليف كتاب (المفتاح) كان يتجه إلى بيان سر الإعجاز القرآني.

وسأترك القارئ الكريم مع عبارات حرية أن تكتب بماء الذهب لسيادته؛ يقول في مقدمة كتابه: "والكاتبون في قضية الإعجاز القرآني حتى عصر (عبد القاهر) كانوا أقرب إلى الروح الأدبي وتذوق الجمال في الأدب، وإدراك الخصائص الأسلوبية بحاسة مرهفة؛ فجاءت قواعدهم التي وضعوها لشرح هذه القضية غير منفصلة عن حقلها الأدبي الأصيل.

وليس من شك في أن فساد الأذواق وانحراف الملكات وتضاؤل الطبع في نفوس العرب، وامتزاج العرب بالشعوب المغلوبة، وظهور أثر الامتزاج في الألسنة والطباع، وما أثمرت عنه حركة النقل للعلوم والحضارات المختلفة للغة العربية، ليس من شك في أن هذا كله كان باعثًا على ضبط أصول نظرية الإعجاز القرآني من ناحية نظمه وبلاغته، ووضعها في قوالب وقوانين أقرب إلى العلوم وطبيعتها منه إلى الأدب وجموحه وتشعبه، وذلك تمشيًا مع العصر وسنة الحياة في التطور، وحفظًا لقواعد هذه النظرية من العبث والضياع، أو الإهمال والنسيان في خضم الدراسات القرآنية أو الأدبية على السواء.

وقد اضطلع بهذا الدور الإمام أبو يعقوب السكاكي (٦٢٦هـ) صاحب كتاب (مفتاح العلوم)؛ فقد قدم في عصره وبكل إخلاص العلم الدائب _أقصى ما يمكن أن يقدمه عالم دارس في سبيل هذه القضية، وعالج هذه

النظرية وعناصرها بطريقة تناسب عصره، وتلبي حاجات ملحة لأهل زمانه، فضبط معاقلها، وخلصها مما علق بها مما ليس منها، وجمع شاردها وواردها، ووضعها في قوالب العلوم وحدودها"[١].

هذا ما قاله أستاذنا العلامة، حيث أثبت أن (السكاكي) قد ألّف مفتاحه بغرض معالجة نظرية (الإعجاز القرآني)، وبيان عناصرها بطريقة تناسب عصره.

وأيّا ما كان الأمر، فإن صاحب المفتاح يتشابه في هذا الغرض _إلى حد كبير_ مع صاحب سر الفصاحة (ابن سنان الخفاجي)، وإن اختلفت وجهة كل منهما، فإن الغاية تكاد تكون واحدة، وطريقة التأليف تتشابه إلى حد كبير.

اللّٰهُمَّ إلا أن (ابن سنان) قد ألّف بطريقة عصره، حيث عاش في القرن الخامس الهجري؛ فجاءت دراسته تطبيقية، كثرت فيها الشواهد، وكثر فيها التحليل، ومال فيها إلى الأسلوب الأدبي في معظم كتابه، على أن كتابه لم يخل من الطابع العلمي والفلسفي في دراسته لبعض المسائل.

لكن العلامة (السكاكي) عاش في عصر الفلسفة؛ فجاء كتابه على طريقة عصره، حيث تُوُفِّي في القرن السابع الهجري؛ ومع هذا فلم يأت (المفتاح) جافًّا معقدًا _كما يزعم بعض الدارسين.

لكن كانت له نظرياته وقضاياه الجديدة التي ظهرت في سفره العظيم (مفتاح العلوم)، يقول أحد الباحثين: "و(السكاكي) _على الرغم مما اتُّهِم به

---

[١] إعجاز القرآن ونظمه عند السكاكي، لأستاذنا الدكتور/ فوزي السيد عبد ربه، ص٥، ط١، ١٤٠٩هـ.

باطلاً بأنه وراء جمود البلاغة وعقم مباحثها_ تناول كثيرًا من القضايا الأسلوبية المهمة التي نحن في حاجة ماسة إليها الآن لفهمها واستيعابها؛ كي نتمكن من التعامل مع النصوص الأدبية الحديثة، والكشف عن قيمتها الأسلوبية والبلاغية بمنهج عربي أصيل، وإنّ ما قام به من تصنيف وتقسيم لمباحث البلاغة كان ضرورة علمية ومنهجية اقتضتها ظروف البلاغة العربية في مرحلة كانت تعاني من تداخل مباحثها وتفرقها، وحاجتها إلى الضبط والترتيب.

وتلك خطوة مهمة لإصباغ البلاغة العربية بصبغة علمية ومنهجية، تؤتي ثمارها المرجوة في الدرس البلاغي والنقدي _على حد سواء.

إن قضايا (العدول اللغوي)، و (مراعاة مقتضى الحال)، و (تباين المقامات في استدعاء صور كلامية معينة)، وارتباط القيم البلاغية والأسلوبية بالدلالات العقلية، لا الوضعية، وانتظام حركتي المماثلة والمفارقة للصيغ البديعية، وغيرها، لتشكل _مجتمعة_ أساس البحث الأسلوبي اللساني، ومن ثم فإن محاولة الكشف عنها، وتجلياتها في (مفتاح العلوم) ليقربنا من قواعد علم الأسلوب، ويجعلنا نشعر بشيء من الاطمئنان إلى موروثنا البلاغي، وما يزخر به من قضايا حداثية أصيلة، تصلح لأن تشكل نظرية أسلوبية عربية خالصة، ومحاولة الكشف عن هذه القضايا الأساسية وغيرها"[١].

[١] ينظر تفصيل ذلك في: البلاغة والأسلوبية عند (السكاكي) ، د/ محمد صلاح زكي أبو حميدة، ص١٠، رسالة دكتوراه، ط١٤٢٨هـ.

لقد هضم (السكاكي) _كما يقول أستاذنا الدكتور فوزي_ تراث السابقين ممن تعاقبوا على قضية الإعجاز، وآمن بفكرة النظم إيمانًا لا يخالجه شك، وكان تلميذًا وفيًّا _إلى حد بعيد_ على ما كتبه (عبد القاهر)، كما آمن بأن مفتاح هذه الفكرة والموصل إليها هو علوم الأدب، فلابد من معرفة هذه العلوم للتعرف على أمر الإعجاز القرآني[١].

إن اقتطاع جزء من (المفتاح) ظلم كبير للعمل وصاحبه، وإبعاد له عن الهدف الذي وضع من أجله كتابه، ومن حق (السكاكي) أن لا تَقْتطِع عمله، وإنما تنظر إليه على أنه جسد واحدٌ، وكلٌّ لا يتجزأ، وأن تربط هذه النظرة بين العمل والهدف الذي وُضِع من أجله[٢].

لعل ما قاله أستاذنا هو خلاصة ما يحدث لكتاب (السكاكي)، وهو السبب الرئيس فيما يدور حوله من نقد، وما اتُّهِم به الرجل _ظلمًا وبهتانًا.

وقد أعجبني قول سيادته: "ومن حق (السكاكي) أن لا تَقْتطع عمله، وإنما تنظر إليه على أنه جسد واحدٌ"، إنه كلام في غاية الأهمية، نصّ عليه أستاذ كبير وقارئ جيد لمفتاح (السكاكي).

إن آفة الآفات هي حينما قام الشُّراح بشرح القسم الثالث من (مفتاح العلوم) _دون غيره_ وحكموا عليه دون الإلمام بكتاب (السكاكي) كجسد واحد.

---

[١] إعجاز القرآن ونظمه عند السكاكي، ص٦.

[٢] السابق، ص٧.

ثم أتى من بعدهم قوم أضاعوا (المفتاح) بنقدهم إدخال (السكاكي) علومًا ومسائل ليست من البلاغة في شيء _على حد قولهم.

أيُّ جهل هذا؟! نقتطع جُزْءًا من كتاب لنحكم على الكتاب كله، دون أن نحترم من كتب وألّف!، لست أدري كيف يمكن لأحد أن تُصَور له نفسه أن يحكم _في تبجح_ على كتاب لم يقرأه كاملاً؟!، قرأ آخره وحكم على أوله! كيف ذاك؟!.

كما أسلفنا، فإن (السكاكي) لم يُسَمّ كتابه (مفتاح البلاغة)، وإنما (مفتاح العلوم).

ولم يكن الغرض الرئيس عنده علوم البلاغة، وإنما علوم الأدب، أو علم العربية.

كيف يمكن لنا أن نُضيق فكرة الرجل إلى هذا الحد، وهي ليست كذلك؟!.

(السكاكي) رجل بارع ذكي، ألّف وهو يدرك جيدًا ما الذي يؤلّف؟ وما الغرض من هذا التأليف؟ لكنه لم يكن ليعلم أن من يأتي بعده لن يحترموا فكره باقتطاعهم جزءًا منه والحكم عليه.

منهج (السكاكي) في المفتاح

بعد قراءتنا لكتاب العلامة (السكاكي) (مفتاح العلوم) كاملاً غير منقوص، مرات ومرات، وبعد وقوفنا أمام عباراته وتدبرنا ما بين السطور؛ اتضح لي أن صاحب (المفتاح) قد أتى على كل طارف وتليد في العربية، وهضم ألوانًا من الثقافات، وقد ذلل أوابد علم العربية، وملك فرائدها، فقد كان ولا يزال مدرسة للطالبين، ومنهلاً غنيًّا للدارسين، لقد نظر في ثمرات قرائح أهل اللغة قبله؛ فتفحصها مليًّا، وخاض في غمار فنونها.

لقد كان منهجه دقيقًا غاية الدقة، وكان الرجل دائمًا يفي بما يَعِد، ولا يسهو أبدًا، بل كان الكتاب كأنه فصل واحد، مع اختلاف ما فيه من مسائل.

كان الباب يأخذ بيد الباب، والفصل يتمم الفصل، حتى جاء الكتاب كُلاًّ لا يتجزأ.

أبَعْد هذا يأتي من أتى ليفرق هذا التآلف، ويشتت تلك الأفكار، ويقتطع جزءًا أو قسمًا ليحكم به على الكتاب؟!.

إنه لعبث بعمل الرجل وجهده، وأي عبث!

ونعود إلى ما ما كنا فيه، فنقول:

١_لعل أول ما يلفت انتباهنا في خطة (السكاكي) هو قوله: "وجعلت هذا الكتاب ثلاثة أقسام: القسم الأول في علم الصرف، القسم الثاني في علم النحو، والقسم الثالث في علمي المعاني والبيان".

عبارة مقتضبة، وقد تبدو واضحة عند أول وهلة، لكن إذا تأملتها ألفيتها تثير عدة تساؤلات:

أولاً: لِمَ اكتفى بهذه الأقسام الثلاثة؟ ولِمَ آثر بعض الأقسام دون بعض، كعلم الاستدلال، وعلمي العروض والقوافي، وقد ذكر الجميع في كتابه؟!.

ثانيًا: لماذا جعل كل واحد من النحو والصرف قسمًا، وجعل نوعي المعاني والبيان قسمًا واحدًا؟.

ثالثًا: أين (علم البديع)؟ ألم يزعم الزاعمون أن (السكاكي) قد جنى على (علم البديع)؛ حيث فرق بينه وبين أخويه، وجعله في ذيل البلاغة، حيث كان عرَضًا لا قيمة له؟!.

هذه أسئلة تحتاج إلى جواب، ولعل في الإجابة عليها توضيحًا لمنهجه، وقراءة لما كان يدور في ذهنه.

أما أولاً: فيرجع اكتفاء (السكاكي) بهذه الأقسام الثلاثة إلى كون (علم العربية) _على حد قوله_ يرجع إلى هذه الثلاثة، وقد نص على ذلك بنفسه، حين قال بعد ذلك بسطور: "وإنما أغنت هذه لأن مثارات الخطأ إذا تصفحتها ثلاثة: المفرد، والتأليف، وكون المركب مطابقاً لما يجب أن يتكلم له، وهذه الأنواع _بعد علم اللغة_ هي المرجوع إليها في كفاية ذلك ما لم يتخط إلى النظم"[1].

فالسكاكي _كما قلنا سلفًا_ قد سار على طريقة (ابن سنان الخفاجي)، حيث أراد صاحب المفتاح البدء بالصوت، والحرف، والانتهاء بالتركيب

[1] مفتاح العلوم، ص٥.

والتأليف، وقد أدرك أن الصرف والنحو والمعاني والبيان، إنما هي علوم توصل إلى هذا الغرض، ولذا كان عرضه لها على هذا الترتيب.

ولعل صاحب المفتاح قد ذكر سبب التعرض للمفرد والمركب، حيث قال: "والذي اقتضى عندي هذا هو أن الغرض الأقدم من علم الأدب لما كان هو الاحتراز عند الخطأ في كلام العرب...الخ".

ثم يقول: "مثارات الخطأ إذا تصفحتها ثلاثة المفرد والتأليف وكون المركب مطابقاً لما يجب أن يتكلم له"[1].

أما إيثاره هذه العلوم دون غيرها مما تعرض له كعلم الاستدلال، وعلمي العروض والقوافي _مثلاً_ أو بتعبير أدق: إنما قال ثلاثة أقسام ولم يعتد بغير ذلك من الأنواع؛ لأن هذه الأنواع مذيلة بغير ذلك، فكانت هذه مقصودة دون غيرها.

أوْ لأن هذه الأقسام هي الأصل، وغيرها تابع لها، ومتمم لأبحاثها فحسب.

_وأما ثانيًا: فقد جعل كلاً من الصرف والنحو قسما ، وجعل نوعي المعاني والبيان قسمًا واحدًا؛ لمكان الاتحاد بينهما، وترتب البيان على المعاني؛ حيث إن البيان _عنده_ شعبة من المعاني، بخلاف الصرف والنحو.

وهناك سبب آخر: وهو أن علم الصرف يرجع إليه المفرد، وعلم النحو يُرجع إليه في التأليف.

---

[1] مفتاح العلوم، ص٥.

ولذا نجد (السكاكي) نفسه يقول: "ولما كان (علم الصرف) هو المرجوع إليه في المفرد أو فيما هو في حكم المفرد، و(النحو) بالعكس من ذلك، كما ستقف عليه، وأنت تعلم أن المفرد متقدم على أن يؤلف، وطباق المؤلف للمعنى متأخر عن نفس التأليف؛ لا جرم أنا قدمنا البعض على هذا الوجه وضعا لنؤثر ترتباً استحقته طبعاً"[١].

وأما ثالثًا: فأكاد أجزم أنه لا يوجد عنده ما يسمى بـ(علم البديع) مهما زعم الزاعمون، على ما سيأتي.

رأي التفتازاني في منهج السكاكي في مفتاح العلوم

وللعلامة (سعد الدين التفتازاني) في كتابه: (شرح مفتاح العلوم) كلام جيد حول منهج (السكاكي) وترتيبه، وإيثاره للبعض دون الآخر، وهاك عباراته، يقول: "رتب (السكاكي) الكتاب على ثلاثة أقسام: الأول: في علم الصرف، والثاني: في علم النحو، والثالث: في علمي المعاني والبيان، ويشتمل على علم الحد والاستدلال، وعلمي العروض والقوافي، ودفع المطاعن عن القرآن.

وقد ذكر _يعني (السكاكي)_ في صدر الكتاب أن تمام (علم الصرف) بعلم الاشتقاق، وجعلهما في قسم واحد مختلطي المسائل، وأن تمام علم النحو بعلمي المعاني والبيان، ثم أفرد لهما قسمًا على حدة، هو عمدة أقسام الكتاب.

---

[١] السابق، الصفحة نفسها.

وذلك لأن الاشتقاق جزء من الصرف بلا شبهة، ولا كذلك المعاني والبيان من النحو؛ لظهور التمايز بالاسم والحد والغرض والموضوع والمسائل والتدوين، ولكونهما الذروة في العلوم، والمرجع في خواص الكلام ومزاياه التي يرتقي بها إلى حد الإعجاز.

ومعنى كونهما تمام (علم النحو): أنهما الكمال له والشرف والمقصود الأصلي والغرض.

وأما الاستدلال والعروض بالنسبة إلى المعاني والبيان فلا في الاتحاد كالاشتقاق من الصرف، ولا في الاستقلال كالمعاني والبيان من النحو، فجعل أمرهما بين بين، بأن لم يدرجهما فيهما، ولم يذكرهما في قسم على حدة، بل في قسمهما، مع الإشعار بنوع تمييز وإفراد، حيث قال بعد الفصلين: (والكلام في تكملة المعاني، وهي تتبع خواص تراكيب الكلام في الاستدلال...، الفن الأول: في تتمة الغرض من علم المعاني، وهو الكلام في الشعر، والفن الثاني: في الإرشاد بدفع المطاعن، ولشدة اتصال الاستدلال بعلم المعاني جعله تكملة له، وهذين تتمة للغرض منه، لما أن الغرض منه: التوصل إلى توفية مقامات الكلام حقها، والعمدة في ذلك هو القرآن المعجز، وقد طعن فيه جماعة من الجهال حبل بعضها علم النظم، فناسب أن يجعلا من تتمة الغرض.

ولما أن البيان شعبة من المعاني، على ما سيجيئ جعل اللواحق تارة من تتمة العلمين، وتارة من تتمة المعاني"[1].

---

[1] شرح التفتازاني على القسم الثالث من مفتاح العلوم، لسعد الدين التفتازاني، مخطوط رقم ٢٣٥٢/٥٦٦٤٣ ، لوحة رقم ٣.

لا مفر إذن من التنبيه على أن العلامة (السكاكي) لم يؤلف كتابًا في النحو أو الصرف، أو حتى في علم البلاغة، لكنه ألف كتابًا في (علم العربية) على حد قوله، أو (علم الأدب) بمفهومه هو.

والملاحظ أن القسم الأول عند (السكاكي) قد استغرق أربعين صفحة، والثاني (علم النحو) قد ذُكِر في خمسين صفحة. أما القسم الثالث من الكتاب، وهو في (علمي المعاني والبيان) فقد استغرق أكثر من ثلثي الكتاب.

وهذا يفسر لنا اهتمام العلامة (السكاكي) بالجانب البلاغي في كتابه، مما جعل العلماء يصنفون شروحًا لهذا القسم، والبعض الآخر زعم أن الكتاب ألّفه (السكاكي) في علم البلاغة، على أنه يمكن توجيه ذلك وتوضيحه، فنقول:

يقول العلامة (حسام الدين المؤذني) في شرحه على (مفتاح العلوم للسكاكي) _معلقًا على كلام (السكاكي): "والذي اقتضى عندي هذا التقسيم هو أن الغرض الأقدم من علم الأدب لما كان هو الاحتراز عند الخطأ في كلام العرب... الخ".

يقول المؤذني: "ولقائل أن يقول: إنما يصح هذا لو كان ثمة أغراض يتقدم بعضها البعض، وكان كونه أقدم بالقياس إلى ذلك معلومًا، وذلك أن أفعل التفضيل إنما يكون باللام إذا كان المفضل عليه معلومًا.

ولئن سلمنا أن ثمة أغراض يتقدم بعضها البعض، لكن لا نسلم أن الأقدم هو التمييز بين الصحيح والفاسد؛ لأن الاحتراز عن الخطأ يتوقف على ذلك.

ويمكن أن يقال: لما كان ثمة أغراض كالتوسل به إلى معرفة كلامه تعالى، وإلى معرفة أخبار الرسل عليهم السلام، وإلى قرض الشعر وإنشاء الخطب وإلى إرشاد الغير إلى سلوك جادة الصواب =صح منه ذلك؛ لكونه أقدم بالقياس إلى البعض معهودًا.

قلنا: نزل منزلة المعهود باعتبار من الاعتبارات"[1].

٢_وثاني ما يلفت انتباهنا في خطة (السكاكي) ومنهجه: التناسب والترابط بين الأقسام، والتسلسل بين أجزاء القسم الواحد، بحيث يسلم الجزء للجزء، والفصل للفصل، ثم القسم للقسم، وهذا يذكرنا بمنهج العلامة (ابن سنان الخفاجي) في كتابه (سر الفصاحة)، وإن لم ينبه (الخفاجي) على ذلك، لكن ذلك قد ظهر جليًّا في كتابه.

على أن (السكاكي) كان دقيقًا في ربطه بين الفصول والأبواب إلى درجة جعلت كتابه أكثر تنظيمًا وإحكامًا من غيره.

يظهر هذا جليًّا في بداية كل قسم ونهايته؛ فيقول (السكاكي) في مفتتح القسم الأول: "أما: القسم الأول من الكتاب فمشتمل على ثلاثة فصول الأول: في بيان حقيقة علم الصرف والتنبيه على ما يحتاج إليه في تحقيقها. الثاني: في كيفية الوصول إليه. الثالث: في بيان كونه كافياً لما علق به من

[1] شرح مفتاح العلوم للمؤذني، مخطوط تحت رقم ١٤٩/ ٢٣١٨٥، بلاغة، لوحة رقم (٤).

الغرض، وقبل أن نندفع على سوق هذه الفصول فلنذكر شيئاً لا بد منه في ضبط الحديث فيما نحن بصدده، وهو الكشف عن معنى الكلمة وأنواعها"[١].

ويقول في أول القسم الثاني: "القسم الثاني من الكتاب في (علم النحو)، وفيه فصلان أحدهما في أن (علم النحو) ما هو. والثاني: في ضبط ما يفتقر إليه في ذلك، ثم في مقدمة في الحديث عن التركيب والهيئات"[٢].

ثم يقول في نهاية هذا القسم _أعني قسم النحو: "واعلم أنك إذا تلقيت ما أمليت عليك بحسن التفهم، واستوضحت لطائفه بعين التأمل، وجذبت بضبعك في مداحضه الاختصارية استقامة طبع، وأطلعك على رموزه للتفصي عن المضايق لطافة تمييز، ثم استعرضت معاجم الأوائل في هذا الفن بعد التتبع لمآخذها، والعثور على مجاريها مستطلعًا طلع المقاصد في المبادي والغايات..."[٣].

ثم يقول في أول القسم الثالث: "القسم الثالث من الكتاب في علمي (المعاني والبيان)، وفيه مقدمة لبيان حدي العلمين والغرض فيهما، وفصلان لضبط معاقدهما، والكلام فيهما"[٤].

ويقول في آخره: "وإذ قد تحققت أن علم (المعاني والبيان) هو: معرفة خواص تراكيب الكلام، ومعرفة صياغات المعاني ليتوصل بها على توفية

---

[١] مفتاح العلوم، ص٥.

[٢] السابق، ص٤٤.

[٣] السابق، ص٩٠.

[٤] السابق، ص٩١.

مقامات الكلام حقها، بحسب ما يفي به قوة ذكائك، وعندك علم أن مقام الاستدلال بالنسبة إلى سائر مقامات الكلام جزء واحد من جملتها، وشعبة فردة من دوحتها، علمت أن تتبع تراكيب الكلام الاستدلالي، ومعرفة خوصها، مما يلزم صاحب علم (المعاني والبيان)، وحين انتصبنا لإفادته لزمنا أن لا نضن بشيء هو من جملته، وأن نستمد الله التوفيق في تكملته"[1].

ثم يعنون لباب يسميه: (الكلام على تكملة علم المعاني)، وهي تتبع خوص تراكيب الكلام في الاستدلال، ولولا إكمال الحاجة إلى هذا الجزء من علم المعاني، وعظم الانتفاع به، لما اقتضانا الرأي أن نرخي عنان القلم فيه...

ثم يقول: "الفصل الأول من تكملة علم المعاني في الحد وما يتصل به... الفصل الثاني من تكملة (علم المعاني) في الاستدلال".

ثم يقول في آخره: "وإذ قد أفضى بنا القلم إلى هذا الحد من علمي المعاني والبيان، وما أظنك يشتبه عليك، وأنك منذ وفقنا لتحريك القلم فيهما، لتشاهد ما تشاهد أنا ما سطرنا ما سطرنا إلا وجلّ الغرض توخى إيقاظك مما أنت فيه، من رقدة غباك عن ضروب افتتنات في النسج لحبير الكلام على منوال الفصاحة، وإبداع وشيه بتصاوير عن كمال التأنق في ذلك إشدادًا وإلجامًا، عسى إذا استيقظت أن يضرب لك بسهم، حيث ينص الإعجاز للبصيرة تليله، ويقص على المذاق دقيقه وجليله...

ثم يقول: "اعلم أن قارعي باب الاستدلال بعد الاتفاق على أنه معجز مختلفون في وجه الإعجاز...

---

[1] السابق، ص٢٣٦.

ثم يقول بعد ذلك: "من تتمة الغرض من علم المعاني، وهو الكلام في الشعر، ويتصل به الكلام عن العروض والقافية، وبهذا يختم كتابه"[١].

لا مفر إذن من توضيح هذا التقسيم، وسبب هذا الترتيب، فنقول: لقد ألّف العلامة (السكاكي) كتابه؛ ليكون كتابًا جامعًا، ولذا نجده يطلق عليه (علم العربية) _على حد ما صرح هو بذلك، ومفهوم (علم العربية) عنده هو (علم الأدب) إن صح التعبير.

و(علم الأدب) عنده: علم يحترز به عن الخلل في كلام العرب.

وقد أدرك بحسه أن الاحتراز عن الخطأ يبدأ بالحرف، ثم الكلمة، ثم التركيب _على طريقة العلامة (ابن سنان الخفاجي) في كتابه (سر الفصاحة)، وعلى ما بينت _سابقًا_ فإن (السكاكي) أكثر تنظيمًا وشمولاً من (الخفاجي).

وسواء كان الغرض الرئيس من تأليف كتابه هو (سر الإعجاز القرآني)، أو (تأليف مختصر في علم الأدب)، على ما زعم هو، حين قال: "ولما كان حال نوعنا هذا ما سمعت، ورأيت أذكياء أهل زماني الفاضلين الكاملي الفضل قد طال إلحاحهم عليّ، في أن أصنف لهم مختصرًا يحظيهم بأوفر حظ منه، وأن يكون أسلوبه أقرب أسلوب من فهم كل ذكي؛ صنفت هذا، وضمنت لمن أتقنه أن ينفتح عليه جميع المطالب العلمية"[٢].

أقول: سواء كان هذا أو ذاك، فإن (السكاكي) كان دقيقًا حين بدأ كتابه بعلم الصرف في القسم الأول، ثم ثناه بعلم النحو، وختمه بعلم البلاغة.

---

[١] ينظر تفصيل ذلك في مفتاح العلوم، ص٢٣٧، ٢٧١، ٢٧٩.

[٢] مفتاح العلوم، ص٥.

ومما يدل على أن (السكاكي) قد ألّف كتابه من أجل (نظرية النظم) التي نادى بها الشيخ (عبد القاهر الجرجاني) في كتابيه، وأنه عاش عمره محافظًا على أصول هذه النظرية، والتي بها يعرف سر الإعجاز القرآني =هو هذا التأليف البديع، والترتيب والتنظيم، بادئا بالحرف ومنتهيًا بالتركيب.

ولذا نجد أستاذًا كبيرًا في هذا العلم يؤلف كتابًا يسميه: (إعجاز القرآن ونظمه عند السكاكي)، يقول أستاذنا، الأستاذ الدكتور/ فوزي السيد عبد ربه، في مقدمته: "نظر السكاكي فوجد أن أصول نظرية النظم وما تقوم عليه ضالة مبعثرة، تكاد تغيم في بحوث أدبية، وأخرى نقدية، وثالثة كلامية أو أصولية، أو ما إلى ذلك، وكان مقتنعًا بما صنعه (عبد القاهر)، إلا أنه لم يطمئن إلى عصره في فهم ما كتبه (عبد القاهر)، وما ترمي إليه لمحاته، وما تقوم عليه أحكامه؛ فعصره لا يميل إلى هذا النهج الذي نهجه، وإنما يعرف الحدود والأقسام، وكان عليه أن يرتب مسائل هذه النظرية، ويبوب أبوابها.

هضم (السكاكي) تراث السابقين ممن تعاقبوا على قضية الإعجاز، وآمن بفكرة النظم إيمانًا لا يخالجه شك، وكان تلميذًا وفيًّا _إلى حد بعيد_ على ما كتبه (عبد القاهر)، كما آمن بأن مفتاح هذه الفكرة والموصل إليها هو علوم الأدب، فلابد من معرفة هذه العلوم للتعرف على أمر الإعجاز القرآني.

ذلك لأن مدار الخطأ أو اللبس يكون إما في المفرد، أو التأليف، أو مطابقة الكلام لما يجب أن يتكلم به، وهذا بالطبع _بعد إتقان اللغة_ مرده إلى علم الصرف ويتبعه الاشتقاق، وإلى علم النحو، وإلى علم المعاني والبيان.

فلكي يفهم الإعجاز على وجهه، ينبغي البصر بهذه العلوم وما يتعلق بها، فكان مفتاحه مفتاحًا لهذه العلوم الموصلة لأمر الإعجاز، وإدراك كنهه"[١].

كلام حري أن يكتب بماء الذهب، يدل دلالة واضحة على أن أستاذنا قد قرأ (المفتاح) قراءة جيدة، بل وهضمه، واستوعب فكر صاحبه، ومهما يكن من شيء فإن (السكاكي) قد تأثر إلى حد كبير بالعلامة (ابن سنان الخفاجي)، والشيخ (عبد القاهر الجرجاني).

ولعل ما يؤيد كلام أستاذنا الدكتور أن صاحب المفتاح ختم القسم الثالث من كتابه، بقوله: "وإذ قد عرفنا الحقيقة في المفرد وفي الجملة، وعرفنا فيهما التصريح والكناية، وعرفنا المجاز في المفرد وفي الجملة...، فنقول: البلاغة: هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدًّا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها. ثم يتحدث عن طرفي البلاغة، لينتقل من ذلك إلى الحديث عن الإعجاز"[٢].

ثم يتحدث عن الفصاحة اللفظية والمعنوية _على حد قوله_ ثم يقول: "وإذ قد وقفت على البلاغة، وعثرت على الفصاحة المعنوية واللفظية؛ فأنا أذكر على سبيل الأنموذج آية أكشف لك فيها عن وجوه البلاغة والفصاحتين، ما

---

[١] إعجاز القرآن ونظمه عند السكاكي، أ.د/ فوزي السيد عبد ربه، ص٥،٦. ط١، ١٤٠٩هـ، مطبعة الحسين الإسلامية.

[٢] مفتاح العلوم، ص٢٢٨.

عسى يسترها عنك، ثم إن ساعدك الذوق أدركت منها ما قد أدرك من تحدوا بها...الخ"[١].

ثم يذكر نموذجًا يطبق عليه الألوان البلاغية _كما ذكرها في كتابه_ ليؤكد بذلك أن التطبيق البلاغي والكشف عن سر الإعجاز القرآني هو الغرض الأسمى من كتابه، على ما ذكر أستاذنا من ذي قبل.

ثم يقول _بعد إبراز الوجوه البلاغية في الآية: "ولله در شأن التنزيل، لا يتأمل العالم آية من آياته إلا أدرك لطائف لا تسع الحصر، ولا تظنن الآية مقصورة على ما ذكرت، فلعل ما تركت أكثر مما ذكرت؛ لأن المقصود لم يكن إلا مجرد الإرشاد لكيفية اجتناء ثمرات علمي المعاني والبيان، وأن لا علم في باب التفسير بعد علم الأصول أقرأ منهما على المرء لمراد الله تعالى من كلامه، ولا أعون على تعاطي تأويل مشتبهاته، ولا أنفع في درك لطائف نكته وأسراره، ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه، وهو الذي يوفي كلام رب العزة من البلاغة حقه، ويصون له في مظان التأويل ماءه ورونقه، ولكم آية من آيات القرآن تراها قد ضيمت حقها واستلبت ماءها ورونقها، إن وقعت على من ليسوا من أهل هذا العلم، فأخذوا بها في مآخذ مردودة، وحملوها على محامل غير مقصودة، وهم لا يدرون، ولا يدرون أنهم يدرون، فتلك الآي من مآخذهم في عويل ومن محاملهم على ويل طويل {وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا}.

---

[١] السابق، ص٢٢٨.

ثم يختم كلامه بقوله: "ثم مع ما لهذا العلم من الشرف الظاهر، والفضل الباهر، لا ترى علمًا لقي من الضيم ما لقي، ولا مُني من سوم الخسف بما مني، أين الذي مهّد له قواعده، ورتب له شواهده، وبين له حدودًا يرجع إليها، وعين له رسومًا يعرج عليها، ووضع له أصولا وقوانين، وجمع له حججا وبراهين، وشمر لضبط متفرقاته ذيله، واستنهض في استخلاصها من الأيدي رجله وخيله، علم تراه أيادي سبا، فجزء حوته الدبور، وجزء حوته الصبا. انظر باب التحديد فإنه جزء منه في أيدي من هو، انظر باب الاستدلال فإنه جزء منه في أيدي من هو بل تصفح معظم أبواب أصول الفقه من أي علم هي ومن يتولاها؟"[١].

وكلامه هذا يحتاج منا إلى قراءة جيدة لندرك مرامه، قوله: "ولله در شأن التنزيل...الخ"؛ لقد أدرك (السكاكي) بعد تحليله للآية الكريمة أن كلام الله عجيب، مشتمل على نكت بلاغية لا تحصى، ولا يجب أن نفهم من كلامه عن الآية السابقة أنها مقصورة على ما قال وبيّن، لكنها لا تسع اللطائف ولا تسعها اللطائف، وأن ما أدركه غيض من فيض، وأن غيره قد يدرك بحسه وذوقه غير ما أدرك هو.

على أنه قد شدد على أن كثرة اللطائف ليست مختصة بهذه الآية، بل هي عامة لآياته.

وقوله: "لأن المقصود لم يكن إلا مجرد الإرشاد لكيفية اجتناء ثمرات علمي المعاني والبيان...الخ"، يقول العلامة (الشريف) في توضيح هذا الكلام،

---

[١] مفتاح العلوم، ص٢٣٠، ٢٣١.

وبيان مراد (السكاكي): "قوله: (لأن المقصود) أي لم أذكر جميع ما أدركت من لطائفها، لأن المقصود (لم يكن إلا مجرد الإرشاد لكيفية) أي إلى كيفية (اجتناء ثمرات) العلمين، وإلى (أن لا علم في باب التفسير بعد علم) أصول الدين -أي الكلام-، إذ لا بد منه في تأويل المشتبهات وردها إلى المحكمات، وهو العمدة الكبرى في معرفة معاني القرآن. (أقرأ منهما) أي من هذين العلمين، ويروى منه، أي من علم المعاني والبيان، والظرفان أعني: (في باب التفسير، وبعد علم الأصول).

قوله: (ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه) أراد به كشف القناع عن وجوه البلاغة القرآنية ليجتلى ويتوصل بها إلى إدراك نفس الإعجاز بالذوق، فلا ينافي ما مر من أن الإعجاز لا يمكن وصفه، بحيث يدرك به خصوصيته، ويعرف حقيقته"[١].

وأما قول (السكاكي): "وهو الذي يوفي كلام رب العزة من البلاغة حقه...الخ"، أي: يوفي حق كلامه من البلاغة، ويصون لكلام رب العزة في مظان التأويل ماءه ورونقه، على ما في شرح المفتاح للشيرازي.

وقوله: "ولكَمْ آية من آيات القرآن تراها قد ضِيمت حقها واستلبت ماءها ورونقها، إن وقعت على من ليسوا من أهل هذا العلم...": يشير العلامة (السكاكي) إلى آفة من آفات هذا الزمن، وهي هؤلاء الذين يقومون بتفسير القرآن الكريم، وتوضيح مرامه، وهم فقراء في علم المعاني والبيان، أو من

---

[١] شرح مفتاح العلوم، المسمى (المصباح)، للسيد الشريف الجرجاني، دكتوراه، تحقيق أستاذنا، أ.د/ فريد محمد بدوي النكلاوي، ص٩٢٧.

ليسوا من أهله؛ فصرفوا الآيات عن مقصدها، فسلكوا بها مسالك مردودة، وحملوا معانيها على محامل غير مقصودة، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

ويختم (السكاكي) كلامه، بقوله: "ثم مع ما لهذا العلم من الشرف الظاهر، والفضل الباهر، لا ترى علمًا لقي من الضيم ما لقي، ولا مُني من سوم الخسف بما مني، أين الذي مهّد له قواعده، ورتب له شواهده، وبين له حدودًا يرجع إليها، وعين له رسومًا يعرج عليها...الخ"، يقول (السيد الشريف) في شرح الكلام السابق: "أي: ثم مع ما ثبت (لهذا العلم) أي علم البلاغة المتناول للعلمين (من الشرف الظاهر والفضل الباهر) أي الغالب على كثير من العلوم، لأن غاية كشف الغطاء عن وجوه الإعجاز المؤدى إلى تصديق النبي[صلَّى الله عليه وسلَّم]، المشتمل على سعادة الدارين (لا ترى علما) أسوء حالا منه، وذلك لقّلة المعتنين بشأنه، وكثرة الناهبين من جوانبه وأركانه. و(الضيم) الظلم، (مني) أي ابتلى، و(سامه خسفًا) أي أوْلاه ذلا وكلَّفه مشقَّة.

وأشار إلى قّلة من يعتني به بقوله: (أين الذي مهّد له قواعد) يؤسَّس هو عليها، (ورتب له شواهد؟) أي أمثلًة يستشهد عليها، (وبين له حدودا ورسومًا) تكتسبها تصوراته النظرية، (ووضع له أصولاً وقوانين) يبنى عليها مسائله الفرعية، وجمع له حججًا وبراهين قطعيًة يستدل بها على أحكامه الكسبية...

قوله: (بل تصفَّح)، أي: انظر صفحات أكثر أبواب أصول الفقه من الحقيقة والمجاز والتصريح والكناية وغيرها، فإنها من هذا العلم، وقد تولاها

صاحب الأصول، وعد غير ما ذكرنا مرة بعد أخرى، فإنك تجد كثيرًا من مباحث هذا العلم متفرقة في كتب النحو والتفاسير.

قوله: (ولكن الله) استدراك عما ابتلي به هذا العلم من الضيم والتفرق، أي لم يوفق الله سبحانه لجميع متفرقاته وإصلاح شأنه أحدًا قبلي، لكنه (عسى) أن يوفقني لذلك حيث وفَّقني (لتحريك القلم فيه)، فأقوم بما هو حّقه، على ما ينبغي"[١].

[١] شرح مفتاح العلوم، للسيد الشريف ، ص٩٢٨.

*خلاصة القول

لعل كلام (السكاكي) ينطق بمراده والغرض من تأليفه، على ما مر في توضيح منهجه.

فيفهم من كلامه السابق أنه قد وجد علم البلاغة قد تفرق بين كتب الفقه، والأصول، والنحو، والتفسير، وأن تفسير القرآن المعجز قد تولاه قوم لم يفقهوا البلاغة، ولم يتعلموا أصولها.

فألّف العلامة (السكاكي) مفتاحًا لعلوم العربية (علم الأدب) بادئا فيه بالصوت ثم الحرف والكلمة وختم بالجملة والتركيب.

ولذا نجده يبدأ كتابه بعلم الصرف، ثم علم النحو، ويختمه بالقسم الثالث، وهو (علم البلاغة) ومتعلقاته، من الاستدلال والعروض والشعر _على حد قوله.

وسواء كان الغرض من تأليف كتابه (النظم)، أو (الإعجاز القرآني)، على ما صرح به أستاذنا الدكتور من ذي قبل، أو حتى التأليف البلاغي، فإن مفتاح (السكاكي) جاء منظمًا مرتبًا متناسقًا، لم يضطرب صاحبه أبدًا، ولم يغفل عن فكرته، بل كان الرجل دائمًا يقظًا، يضع أمامه غاية ليصل إليها، فلم يشذ عن سابقه، لكنه كان أكثر تنظيمًا من كل من سبقوه، ولم يكن ذلك بسبب قصور في الكتب التي سبقت تأليفه، لكن غرضه كان مختلفًا، ومنهجه كان واضحًا.

لقد نظر من أول وهلة في الكتب التي أُلِّفَت قبله، فوجد علم البلاغة فيها متفرقًا، متناثرًا، فجمع شتات هذا العلم، ونظمه ورتبه ترتيبًا بديعًا لم

يسبق إليه، جعل كل من أتى بعده مشغوفًا به، ما بين شارح وموضح ومختصر وملخص.

انكب العلماء والشراح من بعده على كتاب (المفتاح) يدرسونه تارة، ويشرحونه أخرى.

فكتاب (مفتاح العلوم) كما يظهر من اسمه هو مفتاح للعلوم العربية كلها، لكن هناك غاية أرادها (السكاكي) هي (علم البلاغة)، يظهر ذلك واضحًا من حجم كتابه، وتوزيع هذه العلوم عليه، فقد احتل علم البلاغة عند (السكاكي) أكثر من ثلثي كتابه.

وسيظهر هذا جليًّا حين نقرأ المباحث البلاغية عنده، وتنوعها وتوزيعها على فصولها، وتقديم البعض منها على البعض، وتكرار بعضها.

لكن يبدو أن كتاب (السكاكي) لم يعجب بعض البلاغيين المحدثين _وهم أساتذتي ومشايخي_ تعلمت منهم، وقرأت لهم، ولنا وقفة في الفصل الثالث نناقش ونوضح ونرد على ما أخذوه على صاحب المفتاح.

على أني قد قمت بقراءة كتاب (مفتاح العلوم)، ووضعت في ذلك بحثًا طويلاً، كنت أود أن يقرأه كل من حاول نقد (السكاكي) وهدم مدرسته لكنه بحث طويل ليس مكانه هنا، فقد عنونت له بـ(قراءة جديدة في فكر الإمام السكاكي)، قرأت فيه القسم الثالث من مفتاح العلوم كاملا وربطته بالقسم الأول والثاني ، وقمت بالرد على أي نقد يمكن أن يتعرض له صاحب (المفتاح)، ولولا أني ملتزم بعدد من الصفحات هنا حتى لا يصبح البحث طويلاً جدًّا، وحتى لا أخرج عن الغرض الرئيس من البحث، وهو (السكاكي

في كتابات البلاغيين المحدثين)، أقول: لولا ذلك لأثبت بالدليل كيف أن العلامة (السكاكي) يعد مدرسة وحده، وكيف أنه ظلم، واتهم بما لم يفعله أو يقل به.

الفصل الثالث

السكاكي في كتابات البلاغيين المحدثين

*مدخل لابد منه

لا مفر من التنبيه على أمور في غاية الأهمية:

الأول: إذا كنا قد عنونّا بـ(السكاكي في كتابات البلاغيين المحدثين) فليس معنى ذلك هو جمع كل ما كتب عن (السكاكي) والنص عليه، سواء بالمدح أو بالقدح، أو وافقه على ما قاله أو عارضه، لكني فقط سأذكر نماذج ممن تحدثوا عن (السكاكي) وأيّدوه أو هاجموه، فهذا البحث لا يمكنه جمع كل ما قيل عن (السكاكي)، أو حتى جمع من نقد (السكاكي) وهاجمه، والرد عليه ومناقشته، لأن مثل هذا يتطلب كثيرًا من الصفحات، فربما سمح لي الزمن أن أكتب في هذا الموضوع، وأحصر كل ما قيل وأناقشه وأرد عليه.

الثاني: ليس اختياري لبعض العلماء والمشايخ هو تفضيل لهم على غيرهم، وإنما لشدة اهتمامهم بـ(السكاكي) ومدرسته، ووضوح آرائهم فيه.

الثالث: ليس معنى الرد على بعض العلماء والمشايخ ونقدهم هو التطاول عليهم، كيف وأنا أعلم من أنا ومن هم؟

فأنا ما زلت باحثًا صغيرًا، لا حول لي ولا قوة، وهم علماء لهم قدرهم ومكانتهم عندي، فإذا قفز القلم من يدي، وكتب ما لا يجب أن يكتب من مثلي، فليسامحني القارئ الكريم على ما كتبت؛ إذ الغرض الرئيس هو الدفاع عن (السكاكي) ومدرسته، وليس التطاول على أحد.

١_السكاكي ومدرسته في كتابات الدكتور مطلوب[١].

لعل أكثر من كتب عن (السكاكي) ومدرسته في العصر الحديث، هو أستاذنا الدكتور/ أحمد مطلوب، وليس هذا بمستغرب أو عجيب، فقد نشأ (د/ مطلوب) وتتلمذ على مدرسة الشروح والحواشي، وبدأ حياته بقراءة كتاب (مفتاح العلوم للسكاكي)، فقد حصل سيادته على درجة التخصص (الماجستير)، بتقدير (جيد جدًا) _كما ذكر هو_ في بحث قدمه لنَيْل الدرجة، في رسالة قدمها بعنوان: (البلاغة عند السكاكي).

ثم بعدها بسنوات حصل على درجة الدكتوراه، بمرتبة الشرف الأولى، في بحث قدّمه بعنوان: (القزويني وشروح التلخيص).

ومع أن (د/ مطلوب) كان يُنتظر منه أن يكون قد قرأ كتاب (مفتاح العلوم للسكاكي) و(الإيضاح للخطيب القزويني)، و(المطول والمختصر وشرح مفتاح العلوم للتفتازاني)، و(المصباح والحاشية على المطول للسيد الشريف)، و(الأطول للعصام) و(عروس الأفراح للسبكي)، و(مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي)، وحاشية عبد الحكيم، والدسوقي، والبناني، والإنبابي، وطاشكبرى زاده، وغيرها كثير وكثير جدًا، من الدرر المدفونة في المكتبة الأزهرية، ودار الكتب المصرية، ومعهد المخطوطات، المطبوع منها والمخطوط، الذي لم يسمع به وعنه أحد.

---

[١] لم أذكر البلاغيين المحدثين بحسب الترتيب الزمني، وإنما بحسب نقدهم، قلة أو كثرة.

أقول: كنت أنتظر أن يكون أستاذنا الدكتور/مطلوب قد قرأ هذه الشروح والحواشي والتقارير، وهضمها، واستوعب ما فيها؛ لأنه درس (السكاكي) في الماجستير، و(القزويني، وشروح التلخيص) في الدكتوراه.

وحتى يُسمح لي ولغيري نقد مدرسة الشروح والحواشي والتقارير _إن صحت التسمية_ فلا مفر حينئذ من تسلحه بالقراءة الجيدة لهذه الحواشي؛ حتى ينقد هذا الشارح أو يعيب على ذاك.

أقول هذا وأنا على يقين أن أستاذنا الدكتور مطلوب _وهو العالم_ لم يحكم على هذه الشروح والحواشي إلا بعد أن جمع نصوصًا من هنا وهناك، وآراء حول مدرسة (السكاكي)، ونقدها، وحاول الحطّ من قدر أصحاب الشروح والحواشي وكل من حاول الإشادة بأصحابها.

لا أقول هذا من باب التطاول أو الغمز بسيادته، فهو الأستاذ وأنا مجرد باحث صغير يحبو، لكني أزعم أني قرأت معظم هذه الحواشي، وغيرها كثير جدًا، ممن سمع عنه الدكتور مطلوب، ومن لم يسمع عنه.

قرأت أكثر هذه الشروح والحواشي والتقارير، واستفدت منها كثيرًا، لدرجة جعلتني حينما أقرأ غيرها من الكتب قبلها أجد بوْنًا شاسعًا، فقد قرأت قبلها (البديع لابن المعتز)، و(الأسرار والدلائل) لشيخ البلاغيين (عبد القاهر الجرجاني)، و(سر الفصاحة للأمير ابن سنان الخفاجي)، و(المثل السائر لابن الأثير)، وغيرها من تراثنا الكثير، لكني حينما أمسك بكتاب (مفتاح العلوم للسكاكي)، أو (الأطول لعصام الدين الإسفراييني) أجد هناك فرقًا

ملحوظًا بين المدرستين _إن صح التعبير_ وما قلته عن أستاذنا الدكتور مطلوب سببه:

عدم وجود تفسير مقنع لهجومه على (السكاكي) ومدرسته، سوى أنه لم يقرأ هذه المدرسة، بل قرأ عنها، والفرق واضح بين العبارتين.

وقد منّ الله عليّ في مرحلة (الدكتوراه)، وقمت بتحقيق كتاب (الأطول للعصام) في ثمانية مجلدات كبيرة، وقمت بدراسة الكتاب في الجزء الأول، وتحقيقه من الجزء الثاني للسابع، ووضعت أكثر من ثلاثين فهرسًا في الجزء الثامن، خدمت بهذا هذا السفر العظيم، وحصلت _بفضل الله وحده_ على مرتبة الشرف الأولى، والتوصية بالطبع على نفقة الجامعة.

أقول هذا لأؤكد أني استمتعت بقراءة كتاب (الأطول) كاملاً وتحقيقه، وقد أشفق عليّ وقتها أستاذي، الأستاذ الدكتور/ عبد العظيم المطعني _رحمه الله_، وسعادة الأستاذ الدكتور/عبد العزيز أبو سريع يس _أطال الله في عمره، وهما من قاما بتقييم هذا العمل الضخم، وتقويمه آنذاك.

وقد أشرف عليّ وقتها إمام البلاغيين، سعادة الأستاذ الدكتور/ الوصيف هلال الوصيف _حفظه الله_، والأستاذ الدكتور/ فرج كامل سليم _رحمه الله.

تعجب وقتها أستاذيّ من صبري على قراءة هذا السفر العظيم، فقد استغرق مني ردحًا من الزمن حتى خرج على هذا النحو في ثمانية مجلدات.

أقول هذا ردًّا على كل من يحاول أن ينتقد (السكاكي) ومدرسته، وأنه _وكما قال بعضهم_ وهو شيخنا (المراغي)، والشيخ (الصعيدي) _على ما سيأتي_ لا يستطيع من قرأ في هذه الشروح والحواشي وهضمها أن يكتب سطرين في مجلة أو كتاب، وسأوضح ذلك وأرد عليه في مكانه من هذ الفصل.

لكن العجيب والغريب أن من ينتقد مدرسة (السكاكي) و(القزويني) هو الدكتور مطلوب، الذي كتب ليدافع عن (السكاكي) فهاجمه، بل وظلمه، وتجنى عليه وعلى مدرسته، كما قالت مشرفته، الدكتورة/ سهير القلماوي، حينما قالت في مقدمة كتاب (البلاغة عند السكاكي): "ولقد ظلم الدكتور/ أحمد مطلوب (السكاكي) نوعًا ما، حينما جعله المسؤول عن جفاف هذه الدراسة".

وأقول للدكتورة/ سهير القلماوي: هو لم يظلم (السكاكي) ومدرسته؛ لأنه لم يقرأها حتى يظلمها، ولكنه قرأ ما كُتِب عنها، وجمع سطورًا من هنا وهناك فحسب، دون قراءة هذه الدرر، واستخراج ما فيها، وسأثبت صحة ما أقول _بعد قليل.

وأود أن أنبه إلى أن ما يجعلني أتهم سيادته _وهو العالم_ هي أمانة البحث العلمي، فحسب، وقد تعلمت من أساتذتي، وعلى رأسهم صاحب (الأطول) الجرأة ما دمت على الحق، وفرق بين الجرأة والتطاول.

فيقول (العصام) في مقدمة (الأطول): "يقول علي _رضي الله عنه: لا تنظر إلى من قال، وانظر إلى ما قال"[1].

---

[1] الأطول، تحقيقًا ودراسة، د/ عبد المنعم رزق: ١/ ٦. المصنوع: ٢٠٦/١، أبجد العلوم: ١/ ٨٦.

فالعبرة إذن بما قاله أستاذي الدكتور مطلوب، والنقد لكلامه لا لشخصه، كيف ذلك وهو العالم، وأنا الفقير في فن البلاغة.

ننقد كلامًا لا أشخاصًا، وسأثبت _بعد قليل_ صحة ما ادعيت.

*رأي الدكتورة/ سهير القلماوي في كلام الدكتور/ مطلوب، عن (السكاكي):

تقول الدكتورة/ سهير القلماوي، بعد أن أشادت بالدكتور/مطلوب: "هذا هو أحمد مطلوب، الدارس، أما (السكاكي) المدروس، فإنه يحتاج في هذه المقدمة إلى كلمة، وإن كان الكتاب كله عنه.

إننا نعلم جميعًا مكانة (السكاكي) في تاريخ البلاغة العربية، فلقد دفع هذه الدراسة بطابعه _كما يتجلى في كتابه هذا المفتاح_ أكثر من ستة قرون متوالية، وقد عاشت الدراسة البلاغية طوال هذه القرون كلها على الجزء الخاص بالبلاغة من كتاب (المفتاح) تلخيصًا وشرحًا وتعليقًا.

ولقد ظلم أحمد مطلوب (السكاكي) نوعًا ما، حينما جعله المسؤول عن جفاف هذه الدراسة التي نتجت عن جفاف الكتاب نفسه، ولكن الواقع أن البلاغة والنقد الأدبي لابد أن يمر في هذه الأطوار دائمًا، بداية فطرية قوية مبعثرة، ثم دراسة حية مؤثرة، وأخيرًا خلاصة وتقنين، وتقعيد جاف يؤدي بحيوية النظرية أو الفكرة أو الناحية المدروسة.

إن هذه هي سنة الحياة في الأبحاث الأدبية والفنية، كل ما في الأمر أن مَعِين الطور الأول طور العفوية والحيوية الفطرية الغامضة المبعثرة، هو الذي نضب لأسباب معروفة إبان عصر (السكاكي) وبعده، وليس أحدًا _من يكون_ هو المسؤول عن ذلك، وإنما المسؤول أمة بأسرها، وظروف في جملتها.

إن (السكاكي) قدم في عصره وبكل إخلاص العالِم الدائب المتأثر بروح العصر _وما كان له إلا أن يتأثر_ أقصى ما يمكن أن يقدمه عالم دارس في سبيل علم من العلوم.

لقد كان عصره عصر جمع وتبويب، وعصر تقعيد وتقنين، فجمع فنون البلاغة وكانت أشتاتًا مفرقة في كتب كثيرة، منها ما تعرض لجملة من مسائلها، ومنها ما تعرض لواحدة، ولكن دون تبويب، وأكثر تعرض من وجهة نظر عقائدية تفسيرية لنص القرآن الكريم من حيث مجازه خاصة، أو إعجازه بوجه عام.

وجاء (السكاكي) متأثرًا بأقرب هؤلاء الدارسين منه عهدًا بـ(عبد القاهر الجرجاني)؛ فرتب وبوّب حتى نُسِب العلم إليه.

يقول ابن خلدون _والكلام للدكتورة/ سهير: (تكلم الأقدمون أولاً في علم البيان، ثم تلاحقت مسائل الفن واحدة بعد أخرى، وكتب فيها جعفر بن يحي والجاحظ وقدامة، وأمثالهم إملاءات غير وافية، ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئًا فشيئًا، إلى أن محص (السكاكي) زبدته، وهذّب مسائله، ورتب أبوابه على نحو ما ذكرنا أنفًا من الترتيب، وألّف كتابه المسمى بـ(المفتاح) في النحو والتصريف والبيان؛ فجعل هذا الفن من بعض أجزائه، وأخذه المتأخرون من كتابه، ولخصوا منه أمهات هي المتداولة إلى هذا العهد، كما فعله (السكاكي) في كتابه، وابن مالك في كتاب المصباح، والقزويني في الإيضاح والتلخيص).

ويُعد (السكاكي) _والكلام مازال للدكتورة_ خاتم المدرسة الكلامية أو العلمية أو الاصطلاحية في البلاغة.

وقد تزعم هذا التيار مؤلفون، أكثرهم من أصول مختلطة بالعرب، ولكن (السكاكي) كان يتوج هذا التيار، ويسجل نصره الكامل على المدرسة الأدبية، أو الذوقية، التي لم تجد بعد أبي هلال العسكري في (الصناعتين) من ينفث فيها الروح من جديد، ولكن (السكاكي) لم يكن في زمان يتصور معركة بين مدرستين، ولم تكن هناك في الواقع معركة، وإنما كان يلبي حاجة طبيعية لأبناء عصره...

إلى أن تقول: "وكتاب (المفتاح) أعان _بلا شك_ على حفظ الصورة البلاغية القديمة، وروّج لها، ولكنه لم يسعَ إلى تطويرها؛ لأن مهمته الرئيسة كانت الصون والحماية، ونشر الذوق العربي السليم في كل الأرضين التي فتحها المسلمون.

وأكبر ظني أنه من هذه الناحية _إن لم يكن لغيرها_ أيضًا_ يُحمد ويشكر.

إن في البلاغة العربية غابات بل أدغالاً كلها ما زالت بكرًا تنتظر الدارسين..."[1].

[1] مقدمة رسالة الماجستير، للدكتور أحمد مطلوب، بقلم: د/ سهير القلماوي، ص١١.

تعليقنا على كلام الدكتورة سهير القلماوي :

هذا خلاصة ما قالته الدكتورة/سهير القلماوي، المشرفة على رسالة الماجستير، للدكتور/أحمد مطلوب، وقد تعمدت نقل أكثر كلامها عن (السكاكي)، لكني لاحظت عدة أمور لا مفر من الإشارة إليها:

أولاً: شجاعة الدكتور/ مطلوب، وأمانته العلمية، حين نقل كلام الدكتورة/سهير كاملاً دون حذف أو تنقيح، وهذا يدل على أن أستاذنا الدكتور/ مطلوب كان وقتها باحثًا مخلصًا أمينًا، وتلك عادة الباحثين الذين يكتبون ويخلصون للعلم.

ثانيًا: من العجيب والغريب أن تقول الدكتورة/سهير، عن الدكتور/مطلوب نصًّا وفصًّا: "ولقد ظلم أحمد مطلوب (السكاكي) نوعًا ما، حينما جعله المسؤول عن جفاف هذه الدراسة...الخ"، وأين كان دور الدكتورة/سهير، وهي المشرفة على عمله، ألَمْ يقرأ عليها الدكتور/مطلوب ما سطره عن (السكاكي) ومدرسته، واتهامه لعلماء أفذاذ، لن يجود الزمان بمثلهم.

ليس معنى الحرية في الكتابة: التطاول دون وجه حق على العلماء، الذين ضاع عمرهم في البحث والدراسة.

وليس معنى الحرية الطعن في علماء موسوعيين كتبوا في كل شيء، وأجادوا فيه، كالسكاكي، والتفتازاني، والسيد الشريف، والعصام، وغيرهم.

ثالثًا: لست أدري، ما المقصود بقول الدكتورة/سهير (نوعًا ما)، في قولها: "ولقد ظلم أحمد مطلوب (السكاكي) نوعًا ما"؟.

هل هو التقليل مما فعله أستاذنا الدكتور/مطلوب، حين نفّر جيلاً بأكمله من (السكاكي)، ومدرسة (السكاكي)، أو أن الدكتورة/سهير راعت أن الباحث طلب منها أن تكتب تقديمًا لرسالته عنه وعن (السكاكي)؛ فتلطفت في نقده.

الدكتور/مطلوب كتب عن (السكاكي) و(القزويني) في وقت مبكر، مما جعل كل من يقرأ ما كتبه حتى لو كان في تخصص (النحو أو الفقه أو الأدب) يسبُّ (السكاكي) ومن يقرأ أو يكتب عن (السكاكي).

لقد استطاع الدكتور/مطلوب _وأظنه نجح في ذلك_ أن ينفر جزءًا كبيرًا جدًّا من البلاغيين وغير البلاغيين من (السكاكي) ومدرسته، ثم بعد ذلك تقول الدكتورة/سهير عن تلميذها آنذاك: "لقد ظلم أحمد مطلوب (السكاكي) نوعًا ما"!.

وحتى لا أُتَّهم بما اتهم به أستاذي الدكتور/مطلوب، سنقرأ سويًّا بعض ما كتبه في رسالتيه عن (السكاكي)، و(القزويني)، ثم نرد عليه بهدوء.

*نقد كلام الدكتور/مطلوب، في رسالة الماجستير، (البلاغة عند السكاكي)، والرد عليه:

افتتح الدكتور/مطلوب رسالته بنقد مدرسة (السكاكي) من أول سطر من سطورها، وعبارته هي: "المقدمة: أُعجِبَ الناس بكتاب (مفتاح العلوم) للسكاكي؛ فطفقوا يؤلفون الشروح والتلخيصات، ويضعون عليه الحواشي والتقريرات، وبذلك اتجهت الدراسات البلاغية وجهة ما كان لها أن تتجه إليها، لولا أثر هذا الكتاب، ولولا موت المواهب، وضعف الملكات الأدبية، بعد أن انكب العالمان _العربي، والإسلامي_ نكبات كثيرة، وبعد أن اجتاحت البلاد عواصف مدمرة، هبت من الشرق مكتسحة كل حضارة وعمران.

لقد كانت البلاغة _قبل أن يسيطر منهج (السكاكي)_ حرة طليقة، يغلب عليها الطابع الأدبي، ويلف مباحثها روح يعتمد أول ما يعتمد على الذوق، وحسن الإدراك، وكانت للباحثين أصالتهم في التأليف، ومنهجهم الخاص بهم في البحث، فلابن المعتز منهجه وأسلوبه، ولقدامة بن جعفر طابعه الخاص، ولأبي هلال العسكري طريقته الواضحة، ولعبد القاهر الجرجاني أسلوبه ومنهجه، ولضياء الدين ابن الأثير وجهته ورأيه في التأليف"[1].

[1] البلاغة عند (السكاكي)، د/أحمد مطلوب، ماجستير، ص١٨.

التعليق والرد

قبل أن نعلق على كلام الدكتور/مطلوب، فلا مفر من التنبيه على أننا لن نقف أمام كل ما قاله سيادته؛ فالكتاب كله نقد وتجريح للسكاكي ومدرسته، فقط سنختار نصوصًا من كتابيه: (البلاغة عند السكاكي)، و (القزويني، وشروح التلخيص)؛ نقف معها ونناقش آراءه فيها.

ونعود إلى كلامه السابق، يقول: "أُعجِب الناس بكتاب (مفتاح العلوم) للسكاكي؛ فطفقوا يؤلفون الشروح والتلخيصات،..."، وأقول لسيادته: ألَم تبحث عن سر إعجاب الناس بكتاب (المفتاح للسكاكي)، بدلاً من نقد مدرسة وصاحبها، دون أن تبحث عن السبب والسر في إعجاب الناس بمفتاح (السكاكي).

وأقول لسيادتك: إن السبب هو أنه لا مفر من مجيء هذه المرحلة، وهذا الكتاب، وهذا التأليف على النحو الذي قدمه به مؤلفه (السكاكي).

على أن الدكتورة/سهير القلماوي قد فسرت ذلك في المقدمة التي وضعتها على كتاب (البلاغة عند السكاكي)، وعبارتها هي: "ولكن الواقع أن البلاغة والنقد الأدبي لابد أن يمر في هذه الأطوار دائمًا، بداية فطرية قوية مبعثرة، ثم دراسة حية مؤثرة، وأخيرًا خلاصة وتقنين، وتقعيد جاف يؤدي بحيوية النظرية أو الفكرة أو الناحية المدرسة. إن هذه هي سنة الحياة في الأبحاث الأدبية والفنية...الخ"[١].

[١] مقدمة رسالة (البلاغة عند السكاكي)، د/أحمد مطلوب، ص١١.

وهذا الكلام ليس بغريب أو عجيب حتى ينهال الدكتور/ مطلوب بالنقد على (السكاكي) ومدرسته، ويتهمهم بإفساد الذوق البلاغي _على ما سيأتي في كلامه بعد قليل.

على أنه يكفي للدكتور/مطلوب أن ينظر حوله ويسأل نفسه قبل أن يكيل الاتهامات للرجل: هل شذّ العلامة (السكاكي) بتأليفه هذا عن عصره؟! وهل البلاغة والبلاغيين هم من اتجهوا هذا الاتجاه في التأليف وحدهم؟!.

الجواب أن هذا لم يحدث؛ فقد تأثر (السكاكي) بروح التأليف في عصره في كل العلوم، فكان على سيادته أن يطيل القراءة في هذا العصر في شتى صنوف العلم والمعرفة، ووقتها سيدرك أنه يكتب دون أن يتيقن من صحة كلامه، وأنه ينقد لمجرد النقد الجائر، دون أن يطلع أو يقرأ جيدًا عن هذه المدرسة.

وقول سيادته: "وبذلك اتجهت الدراسات البلاغية وجهة ما كان لها أن تتجه إليها، لولا أثر هذا الكتاب".

أقول لسيادته: بل إن التعبير الصحيح والأمانة العلمية تفرض على الدكتور/مطلوب أن يقول: وبذلك اتجهت الدراسات البلاغية وغيرها الوجهة التي فرضها عليها عصر التأليف البلاغي وغير البلاغي آنذاك، والفضل كل الفضل لكتاب (السكاكي) ومدرسته، وروح عصره الذي قنن البلاغة، وحافظ على قواعدها، وحدد نظرياتها.

وما كان للدراسات البلاغية في عصر (السكاكي) خيار آخر إلا هذا الاتجاه حتى إنه تسمى العصر باسمه واسم مدرسته؛ لقيمته وقيمة كتابه، وقيمة ما كتب في البلاغة وعن البلاغة في عصر (السكاكي).

*الدكتور/مطلوب يتهم (السكاكي) ببعده عن الذوق

وقول **سيادته**: "لقد كانت البلاغة _قبل أن يسيطر منهج (السكاكي)_ حرة طليقة، يغلب عليها الطابع الأدبي، ويلف مباحثها روح يعتمد أول ما يعتمد على الذوق، وحسن الإدراك".

وأقول **لسيادته**: **ومن قال لك وأوهمك** بذلك، فهل كان أسلوب (ابن سنان) في سفره العظيم (سر الفصاحة) أسلوبًا أدبيًّا؟ وهو ينتمي إلى القرن الخامس الهجري، عصر شيخ البلاغيين (عبد القاهر الجرجاني)، وغيره كثيرون!.

ثم من قال **لسيادته** إن أسلوب العلامة (السكاكي) كله علمي أو فلسفي _كما يدعي هو وغيره_، لو قرأ **سيادته** كتاب (مفتاح العلوم) للسكاكي كاملاً؛ لأدرك أن (السكاكي) من أكثر من اهتم بالذوق البلاغي وقضية الإعجاز، وقد ألّف بعض الباحثين أبحاثًا عن الذوق عند (السكاكي)، و(السكاكي) نفسه قد اهتم بالذوق وأثره على الجانب البلاغي.

وإذا أنكر الدكتور/مطلوب عليّ اهتمام (السكاكي) بالذوق فكتاب (المفتاح) خير شاهد على ذلك، يقول (السكاكي) في أول القسم الأول، في علم الصرف: "وعندي أن الحكم في أنواع الحروف ومخارجها على ما يجده كل أحد

مستقيم الطبع سليم الذوق، إذا راجع نفسه واعتبرها كما ينبغي وإن كان بخلاف الغير لإمكان التفاوت في الآلات[١].

ويقول (السكاكي) في موضع آخر يشير فيه إلى شيخ البلاغيين (عبد القاهر) وقبل حديثه عن علم المعاني: "وقبل أن نمنح هذه الفنون حقها في الذكر، ننبهك على أصل؛ لتكون على ذُكر منه، وهو: أن ليس من الواجب في صناعة وإن كان المرجع في أصولها وتفاريعها على مجرد العقل، أن يكون الدخيل فيها كالناشئ عليها في استفادة الذوق منها فكيف إذا كانت الصناعة مستندة على تحكمات وضعية، واعتبارات إلفية، فلا على الدخيل في صناعة علم المعاني أن يقلد صاحبها في بعض فتاواه إن فاته الذوق هناك، على أن يتكامل له على مهل موجبات ذلك الذوق.

وكان شيخنا (الحاتمي)، ذلك الإمام الذي لن تسمح بمثله الأدوار، ما دار الفلك الدوار، تغمده الله برضوانه يحيلنا بحسن كثير من مستحسنات الكلام، إذا راجعناه فيها على الذوق، ونحن حينئذ ممن نبغ في عدة شعب من علم الأدب، وصبغ بها يده وعانى فيها وكده وكده، وها هو (الإمام عبد القاهر) _قدس الله روحه_ في (دلائل الإعجاز) كم يعيد هذا"[٢].

ويقول في موضع ثالث: "وإذ قد وقفت على البلاغة، وعثرت على الفصاحة المعنوية واللفظية، فأنا أذكر على سبيل الأنموذج آية، أكشف لك

---

[١] مفتاح العلوم، للسكاكي، ص١٣، تح: نعيم زرزور.

[٢] مفتاح العلوم، للسكاكي، ص١٦٩.

فيها عن وجوه البلاغة والفصاحتين، ما عسى يسترها عنك، ثم إن ساعدك الذوق أدركت منها ما قد أدرك من تحدوا بها"[١].

ويقول في موضع رابع، عند حديثه عن طرق القصر: "فالطرق الأول الثلاث دلالتها على التخصيص بوساطة الوضع، وجزم العقل، ودلالة التقديم عليه بوساطة الفحوى، وحكم الذوق"[٢].

ويقول في موضع خامس _عند حديثه عن ما يدرك به الإعجاز: "فهذه أقوال أربعة، يخمسها ما يجده أصحاب الذوق من أن وجه الإعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة، ولا طريق لك على هذا الخامس إلا طول خدمة هذين العلمين، بعد فضل إلهي، من هبة يهبها بحكمته من يشاء، وهي النفس المستعدة لذلك، فكل ميسر لما خلق له"[٣].

هذه خمسة مواضع، تحدث فيها العلامة (السكاكي) عن الذوق، وأثره على فنون البلاغة، ودوره في الإعجاز، وإذا أراد الدكتور/مطلوب عشرات المواضع فلن يكلفه ذلك شيء، سوى أن يفتح كتاب (السكاكي)؛ وسيجده لا تمر الصفحات إلا ويشير إلى الذوق ودوره في البلاغة.

ثم أود أن أسأل أستاذنا الدكتور/مطلوب سؤالاً، وأود من سيادته بأمانة العلماء وصدقهم أن يجيبني عليه: هل ما نقلتُه من نصوص الآن يظهر

---

[١] السابق، ص٢٠٥.

[٢] السابق، ص٢٩٢.

[٣] السابق، ص٥١٢.

فيها الجانب الفلسفي العقيم، والأسلوب الملتوي، الذي لا يُفهم، الذي جعلنا نفتقد للأسلوب الأدبي، الذي كتب به الكل ما عدا (السكاكي)؟!.

أوْ أن كلام (السكاكي) الذي ذكرته في النصوص الخمسة أسلوبًا سهلاً، يميل إلى الناحية الأدبية أكثر من ميله للجانب العلمي، الذي اتُّهِم به العلامة (السكاكي).

ونعود إلى كلام الدكتور/مطلوب السابق، يقول: "وكانت للباحثين أصالتهم في التأليف، ومنهجهم الخاص بهم في البحث، فلابن المعتز منهجه وأسلوبه، ولقدامة بن جعفر طابعه الخاص، ولأبي هلال العسكري طريقته الواضحة...".

أقول **لسيادته**: وللسكاكي منهجه وأسلوبه وطريقته التي لم تشبه أحدًا ممن سبقوه، فعلى الرغم من صدق ما قاله سيادته، إلا أن العلامة (السكاكي) حدد ملامح منهجه منذ السطور الأول في كتابه، وأما عن الأسلوب، فعليه أن يعْقد موازنة بين أسلوب (السكاكي) وأسلوب (قدامة بن جعفر)، الذي ذكره سيادته، وسيدرك أن الفرق شاسع بين الطريقتين والأسلوبين، بل إن أسلوب (السكاكي) أكثره يميل إلى الناحية الأدبية، بعكس العلامة (قدامة) _كما هو معروف.

على أني أؤكد لأستاذنا الدكتور/مطلوب أن طريقة (السكاكي) هي التي جعلت كتابه بهذه المنزلة التي هو عليها، وجعلت من (السكاكي) مدرسة وحده.

*ويقول أستاذنا الدكتور/مطلوب: "ولم تبق مناهج البلاغة مختلفة باختلاف المؤلفين؛ فقد صُبّت كلها في قالب جديد، في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابق؛ فكان (مفتاح العلوم) الذي اتجه فيه مؤلفه وجهة جديدة فيها تحديد وتقسيم، وفيها ضبط منطقي جاف لمسائل البلاغة ومباحثها، وسيطر الكتاب على مجالس العلم والتدريس، حتى كادت البلاغة تحتضر بعده، لولا بعض القبسات التي أرسلها (يحيى بن حمزة العلوي) في كتابه (الطراز)، و(ابن قيم الجوزية ت٧٥١هـ) في كتابه (الفوائد).

ولكن هذين الكتابين لم يستطيعا أن يقفا بوجه تيار (السكاكي)، ولم يقدرا أن يسيطرا على مناهج درس البلاغة يومذاك؛ فقد ظهر قبلهما بقليل كتاب (المصباح) لـ(بدر الدين بن مالك ت٦٨٦هـ)، وهو أول تلخيص لمفتاح العلوم وصل إلينا، وظهر في زمانهما كتابا (التلخيص) و(الإيضاح) لمحمد بن عبد الرحمن، الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ)؛ فانصرف الناس إلى الكتب الثلاثة، وكادوا ينسون ما كان للعرب من تراث بلاغي ضخم"[١].

التعليق والرد :

وأقول لسيادته: لم تبق مناهج البلاغة مختلفة باختلاف المؤلفين... على حد قوله؛ لاختلاف المرحلة، واختلاف العصر، فاختلف معه التأليف ونوعه، فالسكاكي لم يشذ عن عصره، بل قدّم في عصره وبكل إخلاص العالم الدائب المتأثر بروح العصر_كما ذكرت الدكتورة/ سهير، من ذي قبل.

---

[١] البلاغة عند السكاكي، ص١٨.

على أني لست أدري، ماذا كان يريد الدكتور/مطلوب من (السكاكي) أن يقدم في عصره؟!.

هل يريد منه أن يكتب بطريقة الشيخ (عبد القاهر)، وكما كتب الشيخ (عبد القاهر)!.هل يريد الدكتور/ مطلوب أن ينفصل (السكاكي) عن عصره، وأن يتبرأ من مناهج عصره وكتابات عصره؟!.

لست أدري سببًا واحدًا يجعل الدكتور/مطلوب يقول مثل هذا الكلام، وينقد (السكاكي) من هذه الناحية.

لقد كتب (السكاكي) وألّف بطريقة عصره في شتى العلوم، فلم يشذّ عنه.

وفي قول الدكتور/مطلوب "فكان (مفتاح العلوم) الذي اتجه فيه مؤلفه وجهة جديدة فيها تحديد وتقسيم، وفيها ضبط منطقي جاف لمسائل البلاغة ومباحثها".

نعم اتجه (السكاكي) في كتابه (مفتاح العلوم) وجهة جديدة، جعلت الكتاب يقف شامخًا في عصره، وهذا مما يجب أن يحسب للسكاكي وأن يميز به، لا أن يكون ذلك سببًا لنقده، والهجوم الغير مبرر عليه.

نعم اتجه (السكاكي) وجهة جديدة تبوأ بها كتابه مكانة لم يصل إليها غيره من الكتب.

نعم اتجه (السكاكي) وجهة جعلت كل العلماء والكبار بعده _وهم كثُر_ أمثال (القزويني، والتفتازاني، والعصام، والشيرازي، والسيد الشريف،

والفناري) وغيرهم كثير، يكبر (السكاكي) ومفتاحه؛ لأنهم أدركوا قيمة الرجل وقيمة عمله.

وفي قوله الدكتور/مطلوب: "فيها تحديد وتقسيم، وفيها ضبط منطقي جاف لمسائل البلاغة ومباحثها".

أقول لسيادته: أما التحديد والتقسيم الذي يؤخذ على (السكاكي) _من وجهة نظرك أنت وحدك_ فهو من أفضل حسنات (السكاكي) وكتابه، حيث استطاع (السكاكي) جمع ما كتب وتناثر قبله في الكتب من المباحث البلاغية هنا وهناك، ولمّ شتات هذه المباحث وتنظيمها وتقسيمها، ووضع كل شيء في مكانه الذي يجب أن يكون فيه، فإذا كان (ابن المعتز) و(قدامة) و(أبي هلال) و (ابن سنان) و(ابن رشيق) و(الشيخ عبد القاهر) قد كتبوا بحوثًا وأبوابًا في البلاغة، فلم تكن كتاباتهم عن البلاغة هي المقصود الأصلي والغرض الرئيس، وإنما ألّف أحدهم وكتب عن الفصاحة، وعالج الشيخ (عبد القاهر) قضيتي اعجاز والنظم... وهكذا، وكانت المسائل البلاغية تأتي ضمنًا، فلم يؤلف أحد البلاغيين الكبار الذين سبقوا (السكاكي) كتابًا عالج فيه المسائل البلاغية، ووزعها بين فصولها وأبوابها، كما فصّل صاحب المفتاح، وإذا كنا قد صنفنا كتاب البديع لابن المعتز، وسر الفصاحة وكتاب الصناعتين، والأسرار والدلائل، وغيرها من الكتب ضمن المؤلفات البلاغية؛ فلأنها بحثت في بعض المسائل البلاغية، وبعض ما يخدم البلاغة، التي استقر عليها (السكاكي) ومن بعده، لا أنها كتب في البلاغة.

لا مفر من الاعتراف بذلك والتأكيد عليه؛ فكتاب الصناعتين _مثلاً_ وكما يدل اسمه يتحدث فيه صاحبه عن صناعتي الشعر والنثر، ثم يتناول فيه المسائل البلاغية التي تخدم غرضه، وكتاب الأسرار والدلائل، وهما درة البلاغة، ألّفهما شيخ البلاغيين ليتحدث عن قضية الإعجاز القرآني وقضية اللفظ والمعنى، والقضية التي عرف بها شيخ البلاغيين (عبد القاهر، وهي قضية (النظم).

وهكذا...كل ما كتب قبل (السكاكي) لم يكن تأليفًا مباشرًا، الغرض منه البلاغة.

وأما قول الدكتور/مطلوب: "وفيها ضبط منطقي جاف"، فهذا من العجب العجاب، الذي أجده من عالم كبير مثل الدكتور/مطلوب.

وأقول لسيادته: هل ما نقلته منذ قليل من كتاب (المفتاح) عن الذوق عند (السكاكي) كان تأليفًا منطقيًّا وجافًّا؟

لست أدري، ماذا يعني سيادته بذلك، وقد قرأت كتاب المفتاح، بل وشروحه، وهي كثيرة؛ فلم أجد أي منطق أو جفاف، في كل ما كتب (السكاكي).

وإن كانت هناك شروح للمفتاح، فليست إلا لتفصيل المجمل؛ فالكتاب أُلِّف ليكون مفتاحًا للعلوم _كما يظهر من اسمه_ فيحتاج إلى تفصيل ما أجمله (السكاكي) فحسب، وهذا ما فعله (السيد الشريف) و (الشيرازي) و (ابن كمال باشا) و(التفتازاني)، و(طاشكبرى زاده) عند شروحهم للمفتاح.

وفي قول الدكتور/مطلوب: "وسيطر الكتاب على مجالس العلم والتدريس، حتى كادت البلاغة تحتضر بعده، لولا بعض القبسات التي أرسلها (يحيى بن حمزة العلوي) في كتابه (الطراز)، و(ابن قيم الجوزية ت٧٥١هـ) في كتابه (الفوائد)".

أقول لسيادته: إذا صح ما تقول _وهو لاشك غير صحيح_؛ فأين كتابا الطراز والفوائد من كتاب (مفتاح العلوم للسكاكي) ولِم لمْ يشتهرا شهرة كتاب (السكاكي)، ولم يبلغا ما بلغه؟!.

وأين هذه القبسات التي تدعى أنها من تأليف العلوي وابن قيم الجوزية، التي تفُوق ما كتبه ونظمه صاحب المفتاح.

القارئ الجيد لكتابي (الطراز للعلوي) و (الفوائد لابن القيم) يدرك لأول وهلة أنهما تلخيص لما في المثل السائر والدلائل والأسرار، وغيرها من كتب القرن الخامس.

وحتى كتاب (المثل السائر) نفسه، وهو درة عصره، وأثره الأدبي واضح في زمانه، لكن (ابن الأثير) فيه قد نخل (سر الفصاحة) لابن سنان الخفاجي) نخلاً.

وعنوانه "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"، وهو يدل على غرضه من تأليفه، ومن يستطلع هذا المؤلَّف سيدرك أنه غير كتاب (السكاكي).

وأقول لسيادته: وأين كتاب (المصباح) من كتاب (المفتاح)، وقد وضعتُ بحثًا أزعم أنه جيدٌ، فسرت فيه سبب عدم شهرة كتاب (المصباح)، كما عرف كتاب (المفتاح) وانتشر.

ثم يقول الدكتور/مطلوب: "وانشغل الناس بمفتاح العلوم، وشروحه، وتلخيصاته، وحواشيه، وتقريراته، وانكب الأساتذة يدرسونها مع ما فيها من جفاف الفلسفة، وما فيها من بعد عن الأدب وروحه الفنية..."[١].

وأقول لسيادته: تقول: "وانكب الأساتذة يدرسونها مع ما فيها من جفاف الفلسفة..."، ويضاف إلى ما قلتَه: أن انكب طلاب العلم _وأنا منهم_ يقرأون هذه الشروح، والحواشي؛ ليستخرجوا منها دررًا ظلت حبيسة دور الكتب، وحُرِم الطلاب والباحثون من الانتفاع بما فيها، وذلك بسبب تنفير بعض الأساتذة _ومنهم أستاذي الدكتور/مطلوب_ من (السكاكي)، ومما كُتب عن (السكاكي)، وحول مدرسة (السكاكي).

ويقول: "وكان نتيجة انصراف الناس إلى هذه الكتب، وإهمال كتب البلاغة الأخرى، ككتابي: (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) لعبد القاهر الجرجاني، وهما خلاصة التفكير الفلسفي والأدبي في البلاغة في زمانهما _أن ماتت المواهب، وذهبت الملكات الأدبية التي تحس بالكلام الجميل، وأصبح العاكف عليها لا يستطيع أن يعبر تعبيرًا صحيحًا، أو ينشئ جملة فصيحة، حتى يروى أن أحد الأساتذة عكف على (مفتاح العلوم) وتلخيصاته وشروحه أربعين سنة درسًا وتدريسًا، فلما طلب منه أحد الولاة أن يقول كلمة في حفلة أو اجتماع لم يستطع ذلك الأستاذ أن يفصح عما في نفسه، وأن يعبر تعبيرًا صحيحًا"[٢].

---

[١] البلاغة عند السكاكي، ص١٨.

[٢] البلاغة عند السكاكي، ص١٩.

لعل من العجب أن يعترف الدكتور/مطلوب نفسه في الكلام السابق بتأثر الأديب والبلاغي والكاتب بزمانه وبيئته، وعُد إلى قوله السابق: "وهما خلاصة التفكير الفلسفي والأدبي في البلاغة في زمانهما" لتدرك ذلك، فكيف يحق للدكتور/مطلوب _وهو العالم_ أن يبيح لغير (السكاكي) ما أنكره على (السكاكي)، وأن يجعل تأثر الشيخ الإمام (عبد القاهر) بزمانه وببيئته له وحده، أما (السكاكي) فيجب أن ينفصل عن بيئته، وأن ينكر أسلوب عصره وطريقة التأليف في زمانه .

أقول: لست أدري سببًا واحدًا لذلك، سوى التحامل على (السكاكي) وعصره، لا لشيء إلا لمجرد التحامل.

فالسكاكي _عند الدكتور/ مطلوب_ ومن يكتب عن (السكاكي)، ويقرأ له؛ يُعد قد أتى بجريرة وعيب عظيم، ولعل ما يؤكد ذلك ما اخترعه سيادته من القصة التي ذكرها عن هذا الذي عاش مع (السكاكي) وشروحه أربعين عامًا، وعجز عن أن يقول كلمة في حفلة أو اجتماع.

وهذا الكلام يجعلنا نشفق على أستاذنا العلامة؛ لأن العجز عن الخطابة أو إلقاء كلمة ليس بالضرورة أن يكون سببه العكوف على كتب (السكاكي) _كما زعم سيادته_؛ فكم من أناس يبدعون حينما يمسكون بالقلم، وتجد الواحد منهم الأديب الذي لا يبارَى، وحينما يتكلم يتلجلج ويُرتج، وتراه يقدم رِجلاً ويؤخر أخرى، لا لأنه قرأ أربعين سنة في الشروح والحواشي _كما يزعم سيادته_ فأثَّر ذلك على طريقة كتابته وإلقائه.

وإذا صح ما تقول _وهو لاشك غير صحيح_ فأزعم أني قرأت أكثر الحواشي والشروح والتقارير على التلخيص والمفتاح، وأستطيع أن أقول كلمة في حفلة أو اجتماع!.

وما قاله سيادته حكم جائر وغريب، لا يجب أن يخرج منه _وهو العالم_ فكيف لنا أن نحكم على كل من قرأ الحواشي والشروح بالعي والفهاهة، وعدم الفصاحة؟!.

هناك علماء يقولون ولا يكتبون، وآخرون يكتبون ولا يقولون، وفئة ثالثة تجمع بين هذا وذاك، والجميع لم يقرأ الحواشي والتقارير.

لا يجب أن يعمم أستاذنا الكريم في أحكامه؛ لأن ما قاله لا يجوز فيه التعميم.

يقول سيادته: "وليت المتأخرين استفادوا من (مفتاح العلوم) كثيرًا، فقد كان في قلم مؤلفه أثارة من الأسلوب الأدبي، الذي درج عليه من سبقه من المؤلفين في البلاغة، ولكنهم كادوا يهملونه إهمالاً عظيمًا، بانصرافهم إلى تلخيصاته وشروحه التي لم تهتم بالذوق والأسلوب الجيد، كما اهتمت بالجدل والنقاش، وبذكر ما لا يمت إلى الفنون الأدبية بصلة"[١].

وأقول : حينما فكر الدكتور/مطلوب أن يمدح (السكاكي) وكتابه، انهال بالنقد على شارحيه والمتأثرين به.

[١] البلاغة عند السكاكي، ص١٩.

ولعل ما يضحك في كلامه السابق، قوله: "فقد كان في قلم مؤلفه أثارة[١] من الأسلوب الأدبي، الذي درج عليه من سبقه من المؤلفين في البلاغة".

وكأن أسلوب العلامة (السكاكي) كله علمي وفلسفي _كما نص على ذلك سيادته بعد ذلك.

ومن يعكف على قراءة (مفتاح العلوم) لا يجد كلام الدكتور/مطلوب السابق إلا كلام من لم يطلع على كتاب (السكاكي) ليقرأه، ويعكف عليه ليهضم فكر صاحبه، وإنما يجد الدكتور/مطلوب قد تصفح كتاب (مفتاح العلوم) فحسب.

وإذا كنتَ مكذبًا لي، فكتاب (المفتاح) خير شاهد على ذلك، يقول (السكاكي): "واعلم أن شأن الإعجاز عجيب ، يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن يدرك ولا يمكن وصفها وكالملاحة، ومدرك الإعجاز عندي، هو الذوق ليس إلا، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين"[٢].

ويقول: "ثم ما لهذا العلم من الشرف الظاهر، والفضل الباهر، لا ترى علمًا لقي من الضيم ما لقي، ولا مُني من سوم الخسف بما مني، أين الذي مهد له قواعد، ورتب له شواهد، وبيّن له حدودًا يرجع إليها، وعيّن له رسومًا

---

[١] الأثارة: البقية من العلم. القاموس المحيط.

[٢] مفتاح العلوم، ص٤١٦.

يعرج عليها، ووضع له أصولا وقوانين، وجمع له حججا وبراهين، وشمر لضبط متفرقاته ذيله، واستنهض في استخلاصها من الأيدي رجله وخيله، عِلْم تراه أيادي سبا، فجزء حوته الدبور، وجزء حوته الصبا..."[1].

وأقول : لست أدري سببًا واحدًا يجعل أستاذنا العلامة الدكتور/مطلوب يتهم (السكاكي) ببعده عن الأدب وكلام الأدباء، وخلو كتابه من الأسلوب الأدبي، إلا ما قد تجده في قلم مؤلفه من أثارة من الأسلوب الأدبي!

كان على الدكتور/مطلوب أن يقرأ ليحكم، وأن يستوعب ما قرأه؛ ليتهم علمًا من أعلام البلاغة ورائدًا من روادها، هو العلامة (السكاكي).

وقول الدكتور/مطلوب: "ولكنهم كادوا يهملونه إهمالاً عظيمًا، بانصرافهم إلى تلخيصاته وشروحه التي لم تهتم بالذوق والأسلوب الجيد، كما اهتمت بالجدل والنقاش، وبذكر ما لا يمت إلى الفنون الأدبية بصلة".

لا ندري هل أعجب كتاب (مفتاح العلوم) الدكتور/مطلوب إلى هذا الحد، حتى خشي عليه من الإهمال وانصراف أصحاب الشروح والحواشي عنه!.

لا مفر من أن يعلم أستاذنا العلامة أن الغرض من تأليف (مفتاح العلوم) غير الغرض من تأليف الشروح والحواشي والتقارير، فمع أن مصدر هذه الشروح والحواشي إنما هو (السكاكي)، إلا أن شرحهم وتحشيهم غير

[1] مفتاح العلوم للسكاكي، ص٢٣١، ط البابي الحلبي.

كتاب (السكاكي)؛ فكتاب (السكاكي) أُلّف من أجل أن يكون مفتاحًا للعلوم كلها _كما يظهر من عنوان الكتاب_، وهذا يفسر لنا سبب افتتاح الكتاب بالكلام عن الأصوات والحروف، ثم الكلمة والكلام،... كما نبهنا من ذي قبل.

أما الحواشي والشروح والتقارير، فهي على تلخيص (القزويني) وإيضاحه، في علم البلاغة، فالكتابة فيها غير الكتابة في (مفتاح العلوم)، والغرض من تأليفها لم يكن كالغرض من تأليف (مفتاح السكاكي)، فنقد سيادته في غير محله.

على أن كتاب (السكاكي) قد أَلَّفَه صاحبه في القرن السابع الهجري، والشروح والحواشي والتقارير بدأت بالتفتازاني والعصام والشيرازي في القرن الثامن الهجري، وما بعده، أي بعد تأليفه للكتاب بقرنين من الزمان.

ويقول أستاذنا (د/مطلوب): "وبقيت البلاغة على هذه الحال، وبقي الأساتذة لا يخرجون عما رسمه لهم السلف كالسكاكي، والخطيب القزويني، والتفتازاني، والسبكي، وغيرهم، حتى أطل فجر النهضة الحديثة على أمة العرب؛ فأحس الناس بضرورة تغيير طرائق التدريس وتجديد مناهج البحث والتأليف.

وأخذ الدارسون يحيون تراثهم ويخرجون بحوثًا فيها طرافة وفيها تجديد، مستعينين بحضارتهم التالدة، ومقتبسين من الغرب حضارته الطارفة، وما فيه النفع وإنارة السبيل"[١].

[١] البلاغة عند السكاكي، د/مطلوب، ص١٩.

التعليق والرد :

يبدو أن هذا هو الغرض الرئيس الذي أراده أستاذنا (د/مطلوب) من تنفير الباحثين من كتاب (السكاكي) ومدرسته، ويتضح ذلك من عبارته الأخيرة، التي يقول فيها: "ومقتبسين من الغرب حضارته الطارفة".

فإذا كنا نؤيد سيادته في قوله "مستعينين بحضارتهم التالدة"، فنؤكد لسيادته أن حضارة الغرب التي يدافع عنها ويهدم غيرها، إنما هي من تراثنا الذي أسسه وبناه علماؤنا، فليس هناك تغييرًا جوهريًا، وإنما أصوله عندنا، فلا داعي لأن يقع أستاذنا العلامة في هذه الهوة السحيقة لمجرد الدفاع عن مؤلفات جذورها عند أسلافنا _لمن يدرك ذلك.

على أنه لا تعارض فيما قاله العلامة (السكاكي) في مفتاحه ، إنما هو حاصل ما قاله من سبقه، وخلاصة وتنقيح وتهذيب وضبط، مع بعض إضافات لصاحب المفتاح.

يقول الدكتور/ أحمد محمد علي: "منهج (السكاكي) منهج عربي قديم، يقوم على أساس من التفكير العقلي الخالص، أيّا كان ذلك العقل، وأيّا كانت ثقافته ومعارفه، وأن هذا العقل العربي قد استطاع أن ينشئ به علومًا، ويبتدع به معارف تتحقق فيها المنهج، في أروع صورة من قبل أن يعرف من منطق اليونان حرفًا.

فلما جاء (السكاكي) في القرن السابع الهجري، أراد أن يعيد صياغة علوم الأدب كما انتهت إليه _ومنها البلاغة_ صياغة محكمة، كإحكام تلك العلوم التي تحقق فيها هذا المنهج في أروع صورة، فلم يجد بدًّا من استخدام

المنهج العربي القديم عن وعي وفهم وبصيرة، ولم يُنَحّ (السكاكي) ثقافته العقلية جانبًا عن عمله، ولم يستخدم نفس الوسائل القديمة في إقامة بناء على أساس هذا المنهج، ولكنه استخدم كل أدواته التي أتيحت له في القرن السابع الهجري _والمنطق في مقدمتها_ ليصل بالمنهج إلى نفس درجة الإحكام القديمة"[١].

وقرر في نهاية رسالته: "ونجح (السكاكي) كذلك في أن يعيد صياغة البلاغة على وفق منهج الخليل العقلي المحكم، ملتقطًا مادتها من التراث البلاغي كله _وعلى الأخص تراث عبد القاهر_ مستعينًا بمعارفه العقلية والمنطقية والفلسفية والكلامية، في إقامة صرح هذا البناء، الذي أراد له أن يهيمن على الحقل البلاغي كله، ويتفرد بالسلطان والصولجان ، وقد كان، ومازال إلى الآن"[٢].

وكلام الدكتور/ أحمد علي جيد في مجمله، مع بعض التحفظات عليه، وذلك عند قوله في عبارته الأخيرة: "مستعينًا بمعارفه العقلية والمنطقية والفلسفية والكلامية"، وقد أحسست وأنا أقرأ هذه العبارة أن هناك (مفتاح) آخر غير كتاب (المفتاح) الذي أقرأ فيه ليل نهار، ولا يفارق مكتبتي.

---

[١] بلاغة السكاكي، منهجًا وتطبيقًا، د/ أحمد محمد علي، دكتوراه، في كلية اللغة العربية بالقاهرة، مخطوط تحت رقم ١٩٤٩، ص٣٧، ٣٨.

[٢] الذوق البلاغي عند السكاكي، د/ محمد أحمد محمد أبو نبوت، ص١٦٧، نقلاً عن: بلاغة السكاكي، منهجًا وتطبيقًا، ص٢٥٩.

ولعل أفضل عبارة قالها الدكتور/ أحمد، قوله: "ملتقطًا مادتها من التراث البلاغي كله _وعلى الأخص تراث عبد القاهر".

وهذه حقيقة لا مفر من الاعتراف بها، فالعلامة (السكاكي) قرأ كل التراث البلاغي قبله _وعلى الأخص تراث شيخ البلاغيين عبد القاهر الجرجاني_ وهضم واستوعب ما فيه، ثم أضاف إليه ما أضاف، وكتبه بطريقة عصره الذي نشأ فيه.

عود إلى كلام الدكتور مطلوب ومزاعم التجديد :

ونعود إلى أستاذنا (د/مطلوب)، يقول: "ولكن البلاغة مع ذلك لم تحظ بدراسات كثيرة، بالرغم من انصراف كثير من الباحثين إلى تراثنا الأدبي، فما يزالون لا يقدون على هذا الفن من فنون اللغة العربية إقدامهم على دراسة الأدب وفنونه المختلفة، ولعل سبب ذلك ما وصلت إليه البلاغة من حال يدعو إلى العزوف عن البحث فيها، والانصراف إلى غيرها"[١].

أيُّ حال هذه التي أرادها أستاذنا العلامة، وكأنه بكلامه هذا يسقط عشرات الشروح الضخمة والحواشي والتقارير، ولا يعترف بما فيها من علم غزير لا يؤتَى لكل أحد، وأي إضافة أضيفت في عصرنا الحالي جعلتنا ننصرف إليها، ونبدأ من جديد معها.

لا نكون مغالين إذا قلنا: إن كل ما كتب بعد (السكاكي) يدور في فلك (المفتاح والإيضاح).

---

[١] البلاغة عند السكاكي، ص٢٠.

لا مفر من الاعتراف بذلك ومواجهة أنفسنا، فبدلاً من الهجوم على (السكاكي) ومدرسته لابد من الاعتراف أننا لم نستطع أن نخرُج عما قاله صاحب المفتاح، مهما حاول البعض أن يوهمنا بالتجديد.

فحتى كتب شيخ البلاغيين في العصر الحديث، أستاذنا الدكتور/ محمد أبو موسى، لم تخرج عن نسق (المفتاح والإيضاح).

فقط حاول البعض تهذيب هذه الكتب حتى تواكب زماننا، لكن المادة العلمية لم تخرج عما قاله (السكاكي والقزويني).

لا مفر من الاعتراف أن (السكاكي) جمع كل البلاغة قبله، وبالأخص كتابي عبد القاهر، وبوبها ونقحها ونظمها في سفره العظيم (مفتاح العلوم).

ولأننا عجزنا عن قراءة (المفتاح)، وإبراز ما فيه من جهد واضح، هاجمنا صاحبه واتهمناه بالجمود والتعقيد.

ويتابع (د/ مطلوب) نقده وهجومه، فيقول: "وكان الأزهر الشريف أول من حمل لواء التجديد في البلاغة، وذلك بأن قيض الله لها الأستاذ الإمام الشيخ/ محمد عبده، الذي أخذ يحيي كتب السلف النافعة وعلومهم، ويُقَوِّم ما اعوج من مناهج التأليف وطرائق التدريس، وانصرف إلى تدريس كتابي: (دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة)، لعبد القاهر الجرجاني... ثم يقول بعد ذلك بسطور:

ويبدو مما ذكره الأستاذ/ محمد رشيد رضا _منشئ مجلة المنار بمصر_ في مقدمة الطبعة الثانية (مصر ١٣٣١هـ) من كتاب (دلائل الإعجاز) أن العلماء أحجموا عن تدريس الكتابين بعد الأستاذ الإمام _مع أنهما كنا

مقررين في الجامع الأزهر رسميًا_ لعجز بعضهم عن تفهمهما، وإظهار ما فيهما من طرافة ومتعة أدبية"[١].

كلام الشيخ رشيد رضا عن التجديد وسبب إحجام العلماء عن تدريس كتابي الشيخ عبد القاهر :

وعبارة الأستاذ/ محمد رشيد رضا التي أشار إليها (د/مطلوب) هي: "والجامع الأزهر هو أول معهد من معاهد التعليم الديني العربي قرئ فيه (دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة) درسًا لطلاب البلاغة، ولأجله طبع الكتابان، ولكن أحجم علماؤه كلهم بعد الأستاذ الإمام عن قراءتهما، مع أنهما مقرران للتدريس فيه رسميًا، وقد رأوا تأثيرهما فيمن حضر دروسهما من الطلاب، بما ظهر فيهم من الأدباء والكتاب"[٢].

كلام أستاذنا (د/مطلوب) حق وصدق؛ فقد أعاد شيخنا، (الشيخ/ محمد عبده) قراءة وتدريس كتابي (عبد القاهر) حتى إن الكتابين كانا مقررين على الطلاب في هذا الوقت، ومع ذلك فقد أحجم العلماء عن تدريس الكتابين بعد الأستاذ الإمام.

ويفسر (د/مطلوب) سبب ذلك، بقوله "لعجز بعضهم عن تفهمهما، وإظهار ما فيهما من طرافة ومتعة أدبية"، ولعل هذا الكلام هو من أفضل ما كتب (د/مطلوب)؛ فقد عجز العلماء عن فهم كتاب (عبد القاهر) ليس

---

[١] البلاغة عند السكاكي، ص٢٠.

[٢] مقدمة تحقيق دلائل الإعجاز، للسيد/ محمد رشيد رضا، ص: ك. دار المعرفة، بيروت، لبنان.

لعيب فيهما، وإنما لأن الكتابين يحتاجان إلى إعمال عقل وقراءة جيدة للتراث البلاغي من أوله إلى القرن الخامس، حتى ظهور الكتابين.

فلا أكون مبالغًا إذا قلت أن أسلوب الشيخ الإمام أقرب إلى أسلوب (الجاحظ) في كتبه، فكلاهما يحتاج إلى روية وفكر وذكاء وإعمال عقل، ولعل هذا ما جعل مؤلفات (الجاحظ) والشيخ (عبد القاهر) تأتي في المرتبة الأولى من التأليف الأدبي والبلاغي.

ولو وُجد كتاب (المفتاح) أولاً قبل كتابي (عبد القاهر) لما عابه أحد، لكن كيف ذلك وكتاب (المفتاح) إنما هو قراءة جيّدة لكتب البلاغيين قبله، وفي مقدمتهم كتابي الشيخ الإمام.

لكن لا يجب أن نوازن بين (السكاكي) والشيخ الإمام؛ لاختلاف الزمن والغرض من التأليف.

استشهاد الدكتور مطلوب بمؤلفات للتجديد البلاغي من وجهة نظره ونقدها :

ويقول (د/مطلوب): "ولعل الأستاذ/ علي عبد الرازق كان من أوائل الذين انصرفوا إلى البحث في البلاغة وتاريخ فنونها؛ فقد كتب (أمالي علي عبد الرازق في علم البيان وتاريخه)، ولكن هذا الكتاب لم يشمل البلاغة كلها، وإنما اقتصر على أحد فنونها، وهو (علم البيان).

ولم يكن الكتاب عميقًا بعيد الأثر؛ لأن مؤلفه _كما يبدو_ كان يمليه على طلابه، ولم يكن له متسع من الوقت لتنقيحه وإكماله، وشرح ما أوجزه فيه؛ لانشغاله بأمور أخرى"[١].

ولعل عبارة الشيخ (عبد الرازق) التي يقصدها _كما نص هو_، قوله: "ولكن البحث هنا طويل عريض، يحتاج إلى برهة من الزمن كافية فيه، ولم يبق لي من الوقت ما يسع ذلك... وإذا قدر لنا أن نعود إلى الاشتغال بهذا الفن رجونا أن نتم ما بدأنا، وإلا كان أمره إلى غيرنا، وإلى الله عاقبة الأمور"[٢].

وقد قبِل (د/مطلوب) اعتذار الشيخ (علي عبد الرازق)؛ لانشغاله بأمور أخرى، وأنه كان يمليه على طلابه، فلم يضع قلمه فيه.

حاول (د/مطلوب) تبرئة الشيخ (علي عبد الرازق)؛ لأن أماليه ليست بعيدة الأثر، لكنه هاجم العلامة (السكاكي) في كل سطر من سطور كتابه.

على أن صاحب (الأمالي) قد نقل ما كتبه عن العلامة (السكاكي)، وتأثر بآرائه إلا في القليل النادر.

وأمالي (علي عبد الرازق) عندي في مكتبي، قرأتها كاملة؛ فلم أجد فيها تغييرًا أو إضافة تضاف إلى ما كتبه (السكاكي) ومدرسته.

يقول (د/مطلوب): "وقد تخرج في الأزهر الشريف، في مطلع العصر الحديث جيل فيه عزم على البحث، وفي روحه اندفاع إلى التجديد، وأنشئت دار العلوم؛ فكان بعض هؤلاء الطلاب أساتذة فيها، حملوا دعوة الإمام (محمد

---

[١] البلاغة عند السكاكي، ص٢٠.

[٢] أمالي عبد الرازق في علم البيان وتاريخه، ص٨٢، ط١٣٣٠هـ.

عبده)، والأستاذ (علي عبد الرازق)، وغيرهما، وبذلك كانوا رواد البحث في البلاغة.

ومن الكتب المؤلفة في فجر النهضة، كتاب: (حسن الصنيع في المعاني والبيان والبديع)، للأستاذ الشيخ / محمد البسيوني (١٩١٣م)، وكتاب (زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع)، للأستاذ الشيخ/ أحمد الحملاوي (١٣٥١هـ)، وكتاب (دروس البلاغة) لحفني ناصف وزملائه.

وهذه الكتب _وإن اختلف ترتيبها وتنوع تبويبها_ تنحو منحى ما كتبه التلخيص وشراحه، ولا تبحث البلاغة بحثًا جديدًا، أو تضع الخطوط الرئيسة لبحثها، وإنما هي كتب كان الهدف منها تفسير مباحث البلاغة وموضوعاتها، وتقديمها مرتبة مهذبة للطلاب"[١].

تعليق ورد ونقد :

لست أدري، ما معنى هذا الكلام؟ أو هو مدح أو قدحٌ.

لقد استشهد (د/مطلوب) بهذه الكتب على أنها كتب غيّرت التأليف البلاغي، وعلى أنها إضافات للمكتبة البلاغية، يظهر هذا من قوله: "في مطلع العصر الحديث جيل فيه عزم على البحث، وفي روحه اندفاع إلى التجديد"، ثم هو نفسه ينقد هذه الكتب التي استشهد بها على أنها غيّرت اتجاهات التأليف البلاغي عند (السكاكي).

[١] البلاغة عند السكاكي، ص٢٠

لكن (د/مطلوب) اعترف أن هذه الكتب نحتْ منحى ما كتبه صاحب التلخيص وشراحه.

والحقيقة أن هذه الكتب التي نص عليها (د/مطلوب) هي كتب تعليمية، مثل كتاب (البلاغة الواضحة)، هذه الكتب نقحت كتاب (السكاكي) وكتاب (القزويني)، لكنها لم تأت بأي جديد، سوى الترتيب والتهذيب _كما نص هو على ذلك.

ومع ذلك، فلا يمكن نقد هذه الكتب؛ لأنها حققت الغرض التي أُلفت من أجله ولأجله.

فلا يجب أن يلام هؤلاء العلماء لمجرد أن منهجهم لم يخرج عن ما كتبه (السكاكي) و(القزويني).

الشيخ المراغي ونقد مدرسة السكاكي من وجهة نظر الدكتور مطلوب

يقول (د/مطلوب): "وكان الأستاذ/أحمد مصطفى المراغي من خيرة أساتذة دار العلوم في بحث البلاغة؛ فقد ألّف كتاب (علوم البلاغة)، جمع فيه بين طريقتي (الجرجاني) و(السكاكي)، وألّف كتبًا أخرى، منها: (تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها)، وهو بحث موجز في تاريخ البلاغة، وترجمة أهم رجالها، وفيه آراء قيمة، وأهمها نقد منهج (السكاكي) وطريقته، ومنها كتاب: (بحوث وآراء في علوم البلاغة)، وهو في الواقع ليس إلا المباحث التي

ذكرها فيما بعد مبوبة مرتبة في كتابه المتقدم، وإن اختلفت طريقة العرض والتأليف"[١].

لاحظ قول أستاذنا، (د/مطلوب): "وفيه آراء قيمة، وأهمها نقد منهج (السكاكي) وطريقته"، وكأن آراء الشيخ (مصطفى المراغي) تكمن قيمتها في نقده (السكاكي) ومدرسته، وهذا من العجب الذي يمكن أن يؤخذ على صاحب (البلاغة عند السكاكي)، ولنا وقفة مع الشيخ (المراغي)، ومع آرائه القيمة، التي تحدث عنها (د/مطلوب).

ولعل من الغريب، أن (د/ مطلوب) قد وصف الشيخ (المراغي) بالتكرار في تأليفه دون داع، وذلك عند قوله: و"كتاب: (بحوث وآراء في علوم البلاغة)، في الواقع ليس إلا المباحث التي ذكرها فيما بعد".

من حديث الدكتور مطلوب عن منهجه في كتابه (البلاغة عند السكاكي) :

ويقول (د/ مطلوب) عن منهجه في كتاب: (البلاغة عند السكاكي): "أما الباب الثاني: فقد تحدثت فيه عن جهود (السكاكي) وأثره في البلاغة...، وقد اتضح في هذا الفصل أن بلاغة (السكاكي) لم تكن _في الواقع_ إلا بلاغة (عبد القاهر الجرجاني)، مع ميل شديد إلى الناحية التقريرية، والضبط المنطقي لمسائلها وأصولها"[٢].

---

[١] البلاغة عند السكاكي، ص٢١.

[٢] البلاغة عند السكاكي، ص٢٧.

تعليق ونقد ورد :

ولست أدري، كيف يخرج هذا الكلام من علم كبير، كأستاذنا (د/ مطلوب)، وكيف سوّلت له نفسه أن يحصر بلاغة (السكاكي) فيما كتبه الشيخ (عبد القاهر) فحسب، وأن ليس للسكاكي سوى الجانب الفلسفي المتمثل في الضبط والتقرير.

أيّ كلام هذا!

ثم لو صح هذا الكلام _وهو لا شك غير صحيح_ فهل الأبواب والفصول والموضوعات التي في كتاب (مفتاح العلوم) هي نفسها التي في كتابي الشيخ (عبد القاهر) (الدلائل والإعجاز)؟!

الإجابة لمن يتصفح ما كتبه الشيخ وما كتبه (السكاكي) بالنفي.

على أنه يمكن الجزم بأن الشيخ الأمام لم يؤلف في البلاغة بمفهومها التي استقرت به عند (السكاكي) ومدرسته.

كما أن غرض الشيخ (عبد القاهر) في كتابيه هو معالجة قضيتي (النظم والإعجاز القرآني)، أما العلامة (السكاكي)، فقد ألّف كتابه ليكون مفتاحًا للعلوم _على حد قوله.

لا يمكن الأخذ بما قاله (د/ مطلوب)، أو الوقوف أمامه؛ لأنه _وعلى ما يبدو_ قد تأثر بما قاله الشيخ (محمد عبده) والشيخ (المراغي)، والشيخ (الصعيدي)، فحسب؛ فردد كلام غيره دون أن يطلع على كتاب (المفتاح) ويمعن النظر فيه، حتى يعقد موازنة بينه وبين كتاب (السكاكي).

لا يشك أحد أن العلامة (السكاكي) قد قرأ الأسرار والدلائل، وسر الفصاحة، ونقد الشعر، وكتاب الصناعتين، وغيرها من الكتب قبله، وأن أثر هذه الكتب واضح في كتابه، وأثر الشيخ الإمام يُعد هو الأوضح، وكان للسكاكي في مؤلفه وسفره العظيم (مفتاح العلوم) جهد واضح، وإضافاته أكثر من أن تحصى.

نقول ذلك بعد قراءة متأنية لكتابه (المفتاح)، أمّا أن نزعم أن كتاب (مفتاح العلوم، للسكاكي) وبلاغته ليس سوى كتاب الشيخ (عبد القاهر) فهذا ما لا يمكن الأخذ به.

كيف وكتاب (المفتاح) وكتابي الشيخ الإمام بين أيدينا، فهل نكذب أعيننا ونصدق (د/مطلوب) في دعواه!

حقًا، صدقت (د/سهير القلماوي) حينما قالت عن تلميذها آنذاك: "لقد ظلم (د/مطلوب) (السكاكي)..."، وأقول لها: هو لم يظلم (السكاكي)؛ لأنه لم يقرأ (مفتاح العلوم)، هو فقط ردد كلام غيره ونقد من سبقوه، واعتمد على ما قالوه، وهو كلام لا يُشك في بطلانه.

تجريد الدكتور مطلوب السكاكي من أي جهد بلاغي – على حد قوله :

ويقول (د/ مطلوب): "والفصل الثاني من الباب الثاني، في (جهود السكاكي في البلاغة)، تكلمت فيه عن رأيه في إعجاز القرآن، وأوضحت جهوده في التقسيم والتبويب، ومصطلحات البلاغة وتحديدها، وذكرت آراءه ومقاييسه البلاغية...، وقد تبين في هذا الفصل أن جهوده في البلاغة لم

تكن عظيمة إلا في ناحيتين، هما: تحديد مصطلحا البلاغة تحديدًا جامعًا مانعًا، والتبويب والتقسيم، أما آراؤه البلاغية فلم تكن كثيرة، وليس لها أهمية كبيرة"[١].

الرد والتعليق على كلام الدكتور مطلوب :

ولست أدري، إذا لم يكن للسكاكي أي جهود أو إضافة، فلم اختاره (د/ مطلوب) ليكون عنوانًا لرسالته (البلاغة عند السكاكي)، وحصل بها على درجة الماجستير بتقدير جيد جدًا!

وإذا لم يكن للسكاكي أي جهد _كما نص (د/ مطلوب)، فلِم عنون لباب في رسالته هذه بـ(جهود السكاكي في البلاغة)!

وهل حقًا ليس للسكاكي سوى التبويب والتقسيم وتحديد المصطلحات؟!.

وحتى لو كان هذا _كما نص (د/مطلوب)_ وهو لا شك غير صحيح، وفيه جور وظلم واضح لصاحب المفتاح _فيكفيه ذلك.

من يقرأ (مفتاح العلوم للسكاكي)، سيدرك سبب احتفال الشراح وأصحاب الحواشي والتقارير بهذا الكتاب ومن سار على نهجه.

(التفتازاني) و(العصام) و(السيد الشريف) و(الشيرازي) و(طاشكبرى زاده) و(ابن كمال باشا) و(الخلخالي)، وغيرهم كثير، ليسوا

[١] البلاغة عند السكاكي، ص٢٨.

بهذه الغفلة حتى يشرحوا كتابًا ليس لصاحبه فيه سوى مجرد الترتيب والتبويب _كما زعم (د/ مطلوب).

السبب في هجوم الدكتور مطلوب من كلامه هو :

وكنت أتعجب وأسأل نفسي دومًا كيف يمكن للدكتور مطلوب _وهو العالم_ أن يقول ما قال عن (السكاكي) ومدرسة (السكاكي)، ويتهمهم بما اتهمهم به، ولكن (د/ مطلوب) لم يجعلني أفكر كثيرًا، وأتعجب لنقده غير المبرر والشديد، وهجومه على (السكاكي) ومدرسته، *اسمعْ إليه هذا الكلام لتدرك السبب في هجومه هذا*، حيث يقول: "هذه خطة البحث الذي كان موضوعًا بكرًا، لم يتطرق إليه أحد إلا ما كان من ملاحظات عابرة نثرها الأستاذ/ علي عبد الرازق، في (أماليه)، والأستاذ/ أحمد مصطفى المراغي، في (تاريخ علوم البلاغة، والتعريف برجالها)، والدكتور/ بدوي طبانة، في كتابه (البيان العربي).

لقد أفادتني هذه الملاحظات العابرة، وفتحت الطريق أمامي؛ فاستطعت بالرجوع إلى كتب البلاغة منذ نشأتها أن أُكوِّن فكرة واضحة عن البلاغة العربية، تمكنت على ضوئها أن أتبين بلاغة (السكاكي) ومنهجه ومكانته في تاريخ البلاغة، فكان هذا البحث الذي أرجو أن يكون أول بحث عن (السكاكي)، فيه أصالة وفيه فائدة للدارسين"[١].

[١] البلاغة عند السكاكي، ص٢٨.

تعليق ونقد :

لقد كان أستاذنا (د/ مطلوب) أمينًا حين ذكر مصادره التي اعتمد عليها وكوّن منها فكرته عن (السكاكي) ومدرسته، ونقْد (السكاكي) واتهامه بتهم هو بريء منها.

فلم يقرأ أستاذنا العلامة كتاب (المفتاح)، وكان يجب عليه أن يفعل ذلك، بدلاً من نقل كلام غيره وفكرهم وآرائهم. أقول هذا الكلام وأنا على يقين أن أستاذنا العلامة قد هضم آراء الشيخ (علي عبد الرازق) والشيخ (المراغي)، والشيخ (الصعيدي)، وغيرهم، ثم أدلى برأيه.

وليس معنى هذا أني أُقلل من جهد هؤلاء الأعلام، كيف وهم علماء ومشايخ لهم قدرهم، وقرأنا لهم، وتأثرتُ بما كتبوه، وأفدتُ منه كثيرًا، لكنّ هذا لم يجعلني أعتمد على ما كتبوه هم وغيرهم ،دون الرجوع لقراءة الكتاب نفسه، وتلك هي الأمانة العلمية التي نشأنا عليها، وتعلمناها منذ نعومة أظافرنا.

نقد الدكتور مطلوب ثقافة السكاكي :

ويقول (د/ مطلوب) عن ثقافة (السكاكي): "هذه بعض جوانب ثقافته، ويبدو منها أن (السكاكي) كان مهتمًّا بعلوم اللغة العربية وبالعلوم العقلية أكثر من اهتمامه بالأدب وفنونه، ومن هنا جاء كتابه: (مفتاح العلوم) جاف الأسلوب، تغلب عليه نزعة العلماء، لا روح الأدباء، وبذلك نفر الكثيرون منه، وضاق الدارسون به ذرعًا، وإن اهتمامه البالغ بهذه الثقافة، واهتمامه

التبحر في فنون الأدب، وتذوق روائع الشعر وجيد الكلام لمن الأسباب التي دفعته إلى التأليف في علوم اللغة، وعلم الاستدلال وعلم السحر.

ولم يشرْ أحد من القدماء أو من المحدثين إلى اتجاه آخر له في التأليف غير اتجاه (مفتاح العلوم)، ولم يذكر أحد له قطعة نثرية، أو قصيدة فيها روعة وفيها جمال"[١].

رد وتعليق :

أعجبني في كلام (د/ مطلوب) السابق، قوله: "وبذلك نفر الكثيرون منه، وضاق الدارسون به ذرعًا". لكني أود أن أسأل (د/ مطلوب): مَن الدارسون الذي تعني؟ وكيف يمكن لنا تصديق هذا الكلام بعد قولك قبل ذلك: "انكب عليه الشراح والدارسون". أم أنك تعني بالدارسين: ما ذكرتَهم أنت، كالشيخ (المراغي) والشيخ (علي عبد الرازق)؟!.

إذا كنتَ تعني ذلك فنحن لا نشك فيما قلتَه، لكنّ هؤلاء الدارسين الذين نفروا من (المفتاح) وضاقوا به ذرعًا هم أنفسهم من ألّفوا كتبهم على طريقة (السكاكي) ومنهجه...، فأيُّ دارسين تعني؟!.

نكتب الآن ونؤلف على منهج (السكاكي) وطريقته وتقسيماته، ونسير على نفس الدرب، من تحديد مصطلحات، وتعريف لهذه المصطلحات، ثم نهاجم من كان صاحب الفضل في ذلك، ومن دلنا على هذا المنهج وتلك الطريقة!.

---

[١] السابق، ص٥٩.

ثم من العجيب والغريب في كلام (د/ مطلوب) اتهام (السكاكي) بعدم قرضه الشعر، وعدم إحساسه بالشعر، ونقول: هل كل من ألّف في البلاغة وكتب فيها قد كتب شعرًا وأجاد فيه؟!.

وهل (د/ مطلوب) نفسه ومن تأثر به كتبوا شعرًا، فضلاً عن الإجادة فيه؟.

وهل هذا مما يمكن أن يعاب به مؤلف في البلاغة! وهل ملكة الشعر والكتابة والأدب تؤتَى لكل أحد؟!.

يعلم (د/ مطلوب) أن هناك عوامل أخرى يجب أن تتوفر للشاعر والأديب والناثر، أهمها الزمن والغرض من التأليف، والقراءة الجيدة، ثم الموهبة التي منحها الله للبعض دون غيرهم.

كان على (د/ مطلوب) أن لا ينقد (السكاكي) لمجرد النقد، بل عليه أن يكون عادلاً ومنصفًا، بدلاً من إلقاء التهم دون وجه حق.

ثم هل يمكن لنا أن نتهم الشيخ (عبد القاهر) بإهمال التحديد والتبويب والتقسيم وتعريف المصطلحات، إذا فعلنا ذلك فقد أسقطنا أهم جانب في التأليف وأهملناه، وهو الغرض من التأليف وزمنه، فكنتُ أتعجب من نقد البعض للشيخ (عبد القاهر) أنه قد فصل بين بعض الأبواب البلاغية المتلازمة، وأن (ابن سنان الخفاجي) قد وضع مباحث من علم المعاني عند حديثه عن علم البيان!

وأقول لهؤلاء: وهل ألّف الشيخ الإمام (عبد القاهر)، والأمير (ابن سنان) في البلاغة بمفهومها التي استقرت به عند (السكاكي) و (القزويني) حتى يمكن أن نقول مثل هذا الكلام!.

ألّف الشيخ (عبد القاهر) _كما قلنا مرارًا وتكرارًا_ من أجل قضية النظم والإعجاز القرآني، وألّف الأمير (ابن سنان) من أجل الوصول إلى سر الفصاحة، وتناول كلا منهما المسائل البلاغية التي تخدم هذه القضايا فحسب.

فإذا كنا قد دافعنا عن الشيخ (عبد القاهر) والعلامة (ابن سنان)، فلِم لا ندافع عن العلامة (السكاكي)؟! وأيُّ فرق بين هؤلاء العلماء الذين أضافوا للدراسات البلاغية _وبكل إخلاص_ كل حسب زمنه، والغرض من تأليفه!

مدح للسكاكي يراد به الذم :

ومن العبارات التي مدح فيها (د/ مطلوب) العلامة (السكاكي)، قوله عن منهجه: "ومنهج (السكاكي) في بحث علوم اللغة العربية وترتيبها، منهج فيه كثير من الصواب والدقة، ويكاد يكون كمنهج المحْدَثين في دراسة علوم اللغة؛ فهم يبدأون بدراسة الأصوات اللغوية، ويتناولون بحث مخارج هذه الأصوات وصفاتها، وتمازج بعضها مع بعض...، وبعدها يدرسون الصرف، ثم يدرسون النحو، فالبلاغة، فالعروض، فالقوافي"[١].

[١] البلاغة عند السكاكي، ص٦٦.

وأقول للدكتور/ مطلوب: إن منهج (السكاكي) هذا ليس كمنهج المحدثين في دراسة علوم اللغة، وكيف يكون ذلك وهو سابق عليهم، أم أن كلامك على القلب.

تأثر السكاكي بمنهج الأمير ابن سنان الخفاجي صاحب كتاب(سر الفصاحة) :

والحق، إن منهج (السكاكي) تأثر فيه بصورة كبيرة بمنهج أحد أفذاذ التأليف البلاغي في القرن الخامس الهجري، هو الأمير (ابن سنان الخفاجي)، في كتابه القيم (سر الفصاحة)، فلو كان (د/ مطلوب) منصفًا في حكمه، وقارئًا جيدًا للمؤلفات البلاغية التي كانت قبل العلامة (السكاكي) لأدرك ذلك.

فإن من يقرأ الكتابين يجد اتفاقًا واضحًا في المنهج بين (ابن سنان والسكاكي).

وكان الأجدر بالدكتور مطلوب أن يعدل من عبارته وينصف (السكاكي)، لكنه عزّ عليه ذلك أن يلصق بالسكاكي أي عبارة مدح وإشادة، فقد كان عليه أن يقول: "كان لكتابي (ابن سنان والسكاكي) الأثر الواضح في منهج المحدثين في دراسة علوم اللغة"، لكن يبدو أن (د/مطلوب) أخذ على عاتقه فقط تجريد (السكاكي) من كل فضيلة، لا لشيء إلا لمجرد الهجوم فحسب.

شخصية السكاكي ورأي الدكتور مطلوب :

ويقول (د/ مطلوب) عن شخصية (السكاكي): "ولكن (السكاكي) مع هذا التقدير للمنهج البصري وأعلام المدرسة البصرية البارزين لم ينصرف عن تقدير جهود الكوفيين، والأخذ بآرائهم في بعض المسائل، وغالبًا ما يقول عندما يرجح رأيًا كوفيًّا مثل هذه العبارة: (يرجح عندي مذهب الكوفيين، فليتأمل المنصف)، ومن هنا يتضح أن (السكاكي) لم يكن مقلِّدًا أو متعصبًا لجماعة دون أخرى، وإنما كان يحكم عقله، فما قبله العقل وأيدته الحجة أخذه، وما لم يقبل العقل ولم تؤيده الحجة تركه أو فنّده، ورجح غيره عليه"[١].

تعليق على كلام الدكتور مطلوب :

ولعل هذه العبارة من أقل عبارات المدح التي نجدها في مؤلفات (د/ مطلوب)، لكنها الحقيقة التي لا يمكن له أو لغيره أن يخفيها، فالسكاكي يُحكِّم عقله؛ فلم يكن مقلدًا أو متعصبًا لأحد.

وإن من يقرأ (المفتاح للسكاكي) سيدرك ذلك بعد وقت قصير من الاطلاع على ما كتبه صاحب المفتاح.

---

[١] البلاغة عند السكاكي، ص٦٨.

أسلوب السكاكي من وجهة نظر الدكتور مطلوب :

ويقول (د/ مطلوب) عن أسلوب (السكاكي) في كتابه: "وأسلوب (السكاكي) في كتابه أسلوب العالم، لا أسلوب الأديب، فقد طغى على (مفتاح العلوم) ذوق العالم الذي تهمه الصحة أكثر مما يهمه الرونق والجمال وروعة الأسلوب.

وكان لهذا أثره فيمن حذا حذوه من المتأخرين، فقد أمعنوا في طريقته إمعانًا كبيرًا، أفْقد كتبهم الروح الأدبية، وبذلك أصبحت كتبهم ميدانًا للجدل المنطقي الذي لا يجدي كثيرًا في تهذيب الذوق، وتربية الملكة الأدبية.

ومع أن (السكاكي) ذكر أنه ألّف كتابه ليكون أسلوبه أقرب أسلوب من فهم كل ذكي، فإن الكتاب معقد متداخل الجمل في بعض الفقرات والعبارات، يحتاج إلى كدّ الذهن وإعادة قراءته أكثر من مرة.

ولا نلوم (السكاكي) على هذا، فقد نشأ في بيئة ليست عربية، وكان أعجميًّا، وليس من السهل أن يجيد الأعجمي الكتابة الفنية، وإن أجاد علوم اللغة من صرف ونحو وبلاغة.

ولهذا شمّر (القزويني) ليخلص (مفتاح العلوم) مما فيه من حشو وتعقيد، ويخرجه للناس سهلاً ميسّرًا"[١].

[١] البلاغة عند السكاكي، ص٦٩، ٧٠.

تعليق ورد وتعديل ونقد :

في قول (د/ مطلوب) "وأسلوب (السكاكي) في كتابه أسلوب العالم، لا أسلوب الأديب"، كان يجب أن يقول "في أغلبه"، بزيادة هذا القيد؛ لأن كثيرًا من كلام (السكاكي) ينحو فيه منحى الأدباء، ولا أدل على ذلك من كلام (السكاكي) نفسه، في مفتاح العلوم، حيث يقول في مفتتح حديثه عن الاستدلال: "وإذ قد أفضى بنا القلم إلى هذا الحد من علمي المعاني والبيان، وما أظنك يشتبه عليك وأنك منذ وفقنا لتحريك القلم فيهما لتشاهد ما تشاهد أنا ما سطرنا ما سطرنا إلا وجلّ الغرض توخى إيقاظك مما أنت فيه، من رقدة غباك عن ضروب افتتانات في النسج لحبير الكلام على منوال الفصاحة، وإبداع وشيه بتصاوير عن كمال التأنق في ذلك إشدادًا وإلجامًا، عسى إن استيقظت أن يضرب لك بسهم، حيث ينص الإعجاز للبصيرة تليله، ويقص على المذاق دقيقه وجليله، فتنخرط في سلك المنقول عنهم في حق كلام رب العزة: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق...الخ"[1].

ويقول: "ولله در أمر التنزيل، وإحاطته على لطائف الاعتبارات في إيراد المعنى على أنحاء مختلفة، بحسب مقتضيات الأحوال، لا ترى شيئاً منها يراعى في كلام البلغاء من وجه لطيف إلا عثرت عليه مراعى فيه من ألطف وجوه، وأنا ألقى إليك من القرآن عدة أمثلة مما نحن فيه لتستضيء بها فيما

[1] مفتاح العلوم، ص٢٧٩، ط البابي الحلبي.

عسى يظلم عليك من نظائرها، إذا أحببت أن تتخذها مسارح نظرك، ومطارح فكرك"[١].

ويقول عند تعريفه البلاغة: "هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدًّا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها"[٢].

فنجد تفاوت الأسلوب في النصوص السابقة نظرًا لتفاوت القضية التي يتكلم عنها.

وإذا كان أسلوبه أسلوب العالم لا أسلوب الأديب، فإن هذا على الرغم من ظلم الدكتور للسكاكي في الحكم على الكتاب _لا يُعَدّ عيبًا، حيث إن (السكاكي) ألّف (مفتاح العلوم) ليضع يد القارئ على مفتاح لأكثر علوم اللغة _كما نص هو على ذلك.

وإذا كان قد ألّف كتابه ليكون مفتاحًا للعلوم فكيف يطلب (د/ مطلوب) من شراح (المفتاح) أن يكتبوا بطريقة الأدباء، وهم يشرحون كتابًا أُلِّف يبين مصطلحات العلوم وأنواعها وحدودها...كيف ذلك!

هل كان (مفتاح العلوم كتابًا من كتب الأدب التي أُلِّفت في القرن الثالث أو الرابع الهجري لغرض جمع النصوص الأدبية والشعرية والتعليق عليها!.

---

[١] مفتاح العلوم، ص٧٨.

[٢] السابق، ص١٧٥.

هل كان يعتقد (د/ مطلوب) أن كتاب (السكاكي) هو (العقد الفريد) أو (دلائل الإعجاز)، أو (العمدة لابن رشيق)، أو (كتاب الصناعتين) لأبي هلال العسكري؟!.

كيف يمكن للدكتور مطلوب أن يقول مثل هذا الكلام وهو يعلم أن (السكاكي) ابن القرن السابع الهجري، وهو عصر (حازم القرطاجني)!.

وأن (السكاكي) أطلق على كتابه اسم (مفتاح العلوم)!.

كيف يمكن للسكاكي ولمن شرحوا كتابه أن يكتبوا في غرض غير الذي ألفوا كتبهم من أجله!.

والغريب أن يقول (د/ مطلوب) حين أراد الدفاع عن مؤلَّف (السكاكي): "ولا نلوم (السكاكي) على هذا، فقد نشأ في بيئة ليست عربية"!

ونقول للدكتور: وهل كل من كتب وألّف في اللغة العربية من العرب فحسب!

والأكثر غرابة هو قول (د/ مطلوب): "ولهذا شمّر (القزويني) ليخلص (مفتاح العلوم) مما فيه من حشو وتعقيد، ويخرجه للناس سهلاً ميسّرًا".

وكان يمكن أن يقبل هذا الكلام من (د/ مطلوب) إذا كان صادقًا فيه ويعنيه، لكن (القزويني) الذي مدحه (د/ مطلوب) بغرض ذم (السكاكي)، نقده (د/ مطلوب) نفسه في رسالته التي ألّفها ليحصل بها على درجة الدكتوراه، يقول: "ومع أن (القزويني) عاش في بيئة هي بيئة مصر والشام...غير أنها لم تؤثر فيه، ولم تكسبه هذه الطلاوة، فعكف على ما كتبه (السكاكي) يهذبه، ويبوبه لعله يُقَدِّم للدارسين ما فيه النفع وإنارة السبيل.

ويجد الباحث في كتابي (القزويني) الفلسفة وأساليب المناطقة ومصطلحاتهم ماثلة أمامه مما يعيق سبيل الانتفاع من بلاغته في صقل الأذواق وترتيبها، وقد اعترف (القزويني) نفسه أن بعض مسائل البلاغة أشبه بأصول الفلاسفة"[١].

لا نجد ردًّا على (د/ مطلوب) أبلغ من رده هو على نفسه، فلا ندري إذا كان (السكاكي) في كتابه (مفتاح العلوم) قد امتلأ بمصطلحات الفلاسفة والمناطقة، وحينما ألف (القزويني) كتابيه كان بغرض تخليصه من التعقيد كما قال: "ولهذا شمّر (القزويني) ليخلص (مفتاح العلوم) مما فيه من حشو وتعقيد، ويخرجه للناس سهلاً ميسّرًا" _كما ادعى (د/مطلوب).

نقول: لا ندري إذا كان الغرض هو ما قاله (د/مطلوب)، أو أن الباحث حين يطلع على كتابي (القزويني) سيجد من أول وهلة "الفلسفة وأساليب المناطقة ومصطلحاتهم ماثلة أمامه مما يعيق سبيل الانتفاع من بلاغته في صقل الأذواق وترتيبها"، كما ادعى (د/ مطلوب) وظلم (القزويني) كما ظلم (السكاكي) من ذي قبل.

ليختار القارئ ما يريد وليترك ما يريد، ولا يشغل باله بالتناقض الواضح في كلام صاحب (البلاغة عن السكاكي).

كان عليه أن يراجع كلامه قبل أن يكتبه ويتهم فيه عالمين كبيرين.

---

[١] القزويني وشروح التلخيص، د/ أحمد مطلوب، رسالة دكتوراه، ص٦٥٠، ط١، ١٩٦٧م.

نقد الدكتور مطلوب أحد تلاميذ السكاكي العلامة (عصام الدين الإسفراييني) وتجريده من كل فضيلة :

ظل (د/ مطلوب) في مؤلفاته ناقدًا للسكاكي، يكيل له الاتهامات، لا يشغل باله بشيء إلا لإثبات أن (السكاكي) ومدرسته وبلاغته كانوا سببًا في الجمود والتعقيد، بل وصل به الأمر إلى اتهام كبار شراح المفتاح والإيضاح بالضعف.

وإذا أردت شاهدًا على ذلك فافتح ما شئت من كتب (د/ مطلوب) وتصفح منها سطورًا، وستدرك كيف أن هذا الرجل قد حاول وبشتى الطرق أن ينفر جيلاً من (السكاكي) ومدرسته وبلاغته.

ولنقرأ له هذه السطور التي كتبها عن العلامة (عصام الدين الإسفراييني) صاحب كتاب (الأطول على التلخيص)، يقول عنه في كتابه (القزويني وشروح التلخيص): "وقد رجعنا إلى ردود (العصام) في كتابه على التفتازاني والسيد الشريف وعبد القاهر؛ فلم نجد فيها فائدة، أو قيمة بلاغية؛ لأن أكثرها ردود فلسفية بعيدة كل البعد عن مقاييس الفن الذوقية"[١].

ويقول عنه في موضع آخر: "ولا تجد هذا السخف في الشروح التي عرضناها سابقًا، ولا نجد عندهم الاعتماد على النصوص الفارسية لتوضيح قاعدة بلاغية؛ فقد أدخل (عصام الدين) بعض العبارات لتأييد رأي أو ترجيح آخر، وقد يقال: إن هذا أحسن منه، ولكننا نرى أنه لم يأت بشيء ذي

[١] القزويني وشروح التلخيص، د/ مطلوب، ص٥٩٨.

فائدة؛ لأنه اقتصر على أمثلة معينة، ولم يعمم هذا في كتابه، ليكون بحثًا في البلاغة المقارنة"[١].

ولم يقف نقد (د/ مطلوب) للعصام عند هذا الحد، بل لا أدري كيف طوعت له نفسه أن يمسك بالقلم ليقول عن سفره العظيم (الأطول): "ويتصف الشرح (الأطول) بعد هذا كله بأنه ركيك العبارة، فيه أخطاء لغوية ونحوية كثيرة، وفيه تعقيد، وقد فاق (التفتازاني) وأضرابه في هذا، وليس هذا بالعجيب؛ لأنه كان في عصر مظلم وفي بيئة لا تعرف للعربية طعمًا"[٢].

الرد علي اتهامات الدكتور مطلوب للعصام تلميذ السكاكي :

ولعل ما قاله (د/ مطلوب) في نقده (العصام) ما يجعلنا نضحك لنقده، فكيف يتهم العلامةَ (العصام) بأخطائه اللغوية وله عشرات الكتب والحواشي في النحو والصرف، ويكفي أن نقول أن (العصام) قد شرح كافية (ابن الحاجب)، وهو ما يعرف بـ(عصام على الكافية)[٣]، وهو شرح عارض به العلامة (الرضي)، وناقشه في كثير من المسائل، وعلى شرح (العصام) للكافية حواش كثيرة[٤].

---

[١] السابق، ص٦٠٠.

[٢] السابق، ص٦٠٠.

[٣] هو شرح طبع لأول مرة بالأستانة، سنة١٢٢٥هـ، ومنه نسخة خطية في دار الكتب، برقم ١١٢٢ نحو. ينظر: تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان: ٥/ ٣٢١.

[٤] منها على سبيل المثال لا الحصر:

وله شرح لشواهد الكافية، والفريد في النحو، وشرح على شافية (ابن الحاجب) في الصرف[١].

لعل (د/ مطلوب) أطلق هذا الكلام دون تمحيص ومراجعة _وكان عليه أن يفعل ذلك.

وإذا أراد (د/ مطلوب) أن يعرف قيمة (العصام) فعليه أن يقرأ سفره العظيم (الأطول)، **وما أظنه يستطيع أن يفعل ذلك.**

كيف يتهم (د/ مطلوب) التفتازاني والعصام والسيد الشريف وغيرهم في كتابه (القزويني وشروح التلخيص)، وهم أعلام موسوعيون، لا يمكن للدكتور مطلوب وغيره أن يكتب صفحة مما كتبوا.

العلامة (العصام) الذي اتهمه بأخطائه اللغوية هو مدرسة وحده في اللغة، لا يمكن للدكتور أن يعي ما كتبه (العصام)، أو أن يدرك مَن (العصام)؛ لأنه لم يقرأ (الأطول) أو (المطول) للتفتازاني، أو (مفتاح العلوم).

هو فقط حكم على هؤلاء الأعلام والأفذاذ العماليق بالجهل والضعف، وردد كلام غيره، فوقع في هوة سحيقة حين فعل ذلك، وما كان له أن ينجح فيما أراده من تنفير الأجيال في كتب البلاغيين التي تلت (السكاكي).

١_ حاشية ملا زدة الكردي المتوفى بعد ١٠٧٠هـ.

٢_حاشية دملجي زادة، ومنها نسخة خطية في معهد الدراسات الإسلامية العليا ببغداد، برقم (١٦٥).

٣_ حاشية لعيسى الصفوي (ت٩٥٥هـ).

ينظر تفصيل ذلك، في: كارل بروكلمان: ٥/ ٣٢١، وكشف الظنون، ص١٣٧٢، وشرح الفريد، ص٥١.

[١] السابق، الصفحة نفسها.

نقد الدكتور مطلوب للسكاكي ومدرسته في كل كتبه :

ردد (د/ مطلوب) هجومه هذا على مدرسة (السكاكي) في كل كتبه التي ألفها وذكر نقده هذا بنصه وفصه، فيقول _مثلاً_ في كتابه (دراسات بلاغية ونقدية): "ظلت البلاغة العربية طوال العصور السابقة متونًا تُقرأ، وشروحًا تُدرس، حتى أطل فجر النهضة الحديثة...، وقد انصرف الأستاذ الإمام (محمد عبده) إلى تدريس كتابي (دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة)، لعبد القاهر؛ ففتح أذهان الطلبة، وقوّى مداركهم ومواهبهم؛ لأنهم وجدوا في تدريس الإمام غير ما ألفوه... ولكنّ أساتذة الأزهر أحجموا بعد الإمام (محمد عبده) عن تدريسهما مع أنهما مقرران للتدريس رسميًّا، وبذلك احتضرت الدراسات البلاغية بعده وكادت تموت"[١].

أي كتاب ستقرأه للدكتور/ مطلوب ستجد الكلام نفسه يردده، لا يكلّ ولا يملّ، ظل هكذا في كل مؤلفاته، يشوه في كتاب (مفتاح العلوم)، وينفر من يقترب منه أو يحاول أن يقرأ فيه.

ولولا أن أُتَّهم بالتطويل والتكرار _الذي أحسبني وقعت فيه_ لقمت بالرد على كل ما قاله (د/ مطلوب) في كتبه وظلَمَ فيه (السكاكي) ومدرسته، لكنّ ذلك سيطول.

---

[١] دراسات بلاغية ونقدية، د/ أحمد مطلوب، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، ص٧٩ وما بعدها.

٢_السكاكي ومدرسته في كتابات الشيخ عبد المتعال الصعيدي:

لا يشك أحد في أن الشيخ (عبد المتعال الصعيدي) علم من أعلام البلاغة، الذين حاولوا التجديد في البحث البلاغي، وكان له جهد مشكور في كثير من صنوف المعرفة، وهو صاحب (بغية الإيضاح) المعروفة عند الباحثين.

والعلامة (الصعيدي) _وكما قلت_ إنما هو امتداد لمدرسة الإمام (محمد عبده)، والشيخ (المراغي)، والشيخ (علي عبد الرازق) _رحم الله الجميع.

وقد أراد الشيخ (الصعيدي) أن يهذب البلاغة _على حد قوله_ فاختلطت عليه الأمور، وحذف وأضاف وأدخل بعض الموضوعات في ضمن بعض، وألبسها غير أثوابها بحجة التجديد والتطوير.

وليس ما يفعل الشيخ (الصعيدي) من التجديد في شيء، بل إن من أهم شروط التجديد احترام فكر القدماء، وعدم المساس به، والاستفادة منه.

أقول هذا مع يقيني أن العلامة (الصعيدي) من أكثر العلماء الذين أثْروا البيئة الثقافية بمؤلفاتهم المتنوعة.

إن التجديد من وجهة نظري هو أن نبدأ من حيث انتهى القدماء، نضع لبنة جديدة بجوار لبنات كثيرة حملوها على أكتافهم، حتى ظهر لنا هذا التراث الضخم.

فبدلاً من نقد (السكاكي) وهدم بلاغته، علينا أن نضيف إلى ما سطره (السكاكي)، وعلينا أن نبحث عن السر في عكوف مدرسة (السكاكي) _وهم كثر_ على كتابه.

ولا علينا أن نزعم خطأ كل هذا الحشد الضخم من العلماء، وندعي أنهم أصبحوا أسرى لكتاب (المفتاح)، بل علينا أن نتساءل: لماذا هم أصبحوا أسرى؟

ولماذا ملك (المفتاح) عليهم أفئدتهم وعقولهم؟ أليس في هذا دليلاً قويًّا على عظم هذا الكتاب؟!.

ونعود إلى ما كنا فيه:

لقد حاول الشيخ (الصعيدي) نقد مدرسة (السكاكي) وطريقته في كتبه، وراح يُغيِّر ويبدل في بلاغة (السكاكي)، بل راح يحذف ويضيف.

وراح ينقد كل ما يكتبه (السكاكي) ومن يسير على دربه، حتى استطاع أن يجعلنا نقول: (مدرسة الشيخ عبد القاهر)، و (مدرسة السكاكي).

ولم يدر أستاذنا الشيخ- وهو العالم - أن البلاغة كلٌّ لا يتجزأ في كل العصور، وأن ما قاله (السكاكي) و(القزويني) هو تكملةٌ لما قاله (ابن سنان الخفاجي) والشيخ (عبد القاهر).

فقط اختلف العصر، فاختلفت الكتابة واختلفت طريقة التأليف.

لقد استطاع أستاذنا الشيخ (عبد المتعال) أن يجعل أحد تلامذته هو (د/ مطلوب) أن يتهم (التفتازاني) و(السكاكي) و(العصام) بالضعف العلمي والتعقيد.

تتلمذ (د/ مطلوب) على كلام الشيخ (المراغي) والشيخ (الصعيدي)، وردد ما قالاه نصًا وفصًّا.

والشيخ (عبد المتعال الصعيدي) _وكما سيظهر بعد قليل_ هاجم (السكاكي) ومدرسته في كل ما يكتبوه.

يفتتح الشيخ (عبد المتعال الصعيدي) كتابه (بغية الإيضاح) بنقد (السكاكي) ومدرسته.

ولست أدري مادام الشيخ (الصعيدي) ينقد (السكاكي) ومدرسته، فلِمَ شرح (الإيضاح) وعلّق عليه بكتابه (بغية الإيضاح).

والشيخ (عبد المتعال الصعيدي) يذكرني بالعلامة (ابن الأثير) حين اختار كتاب (سر الفصاحة) لابن سنان الخفاجي كأحد أفضل كتابين قرأهما في البلاغة مع كتاب (الموازنة للآمدي)، ثم انهال على كتاب (سر الفصاحة) بالنقد.

ومع أن أكثر المستفيدين من كتاب (سر الفصاحة) هو (ابن الأثير)، فقد نخله نخلاً، ولم يذكر (سر الفصاحة) في كتابه (المثل السائر) إلا ليعدد معايبه وسقطاته.

فعل الشيخ (الصعيدي) ما سبق أن قام به (ابن الأثير) مع (ابن سنان الخفاجي).

لقد نقد الشيخ (الصعيدي) كتاب (المفتاح) للسكاكي، و(الإيضاح) للقزويني، ومع ذلك سار على نفس منهج (السكاكي) و(القزويني) حين قام بالتعليق والشرح لكتاب (الإيضاح) في كتابه الممتع (بغية الإيضاح).

نقد الشيخ الصعيدي للسكاكي في مفتتح (بغية الإيضاح) :

أقول: بدأ الشيخ (الصعيدي) كتابه بنقد (السكاكي) ومدرسته، واقرأ له يقول في الصفحة الرابعة من الجزء الأول من (بغية الإيضاح): "ولا شك أن (السكاكي) بهذا يعد إلى حد ما من تلاميذ مدرسة (عبد القاهر)، ولكنه كان ناقدا ولم يكن أديبا؛ لأن أسلوبه في كتابه لم يكن أسلوب البليغ الممتاز مثل (عبد القاهر)؛ لأن العجمة كانت غالبة على أسلوبه، وكان الأسلوب التقريري الذي لا يُعنَى إلا بتقرير القواعد غالبًا عليه، فكان في أسلوبه كثير من الغموض والتعقيد وضعف التأليف، ومثل هذا قد يفيد الناظر فيه علمًا، ولا يفيده أسلوبًا بليغًا، بل يفسد فيه مَلَكة البلاغة، وبهذا يكون ضرره أكبر من نفعه....

فلما فرغ من تلخيصه شعر هو أيضا بحاجته إلى شرح، فوضع كتابه (الإيضاح) كشرح له، يجري على ترتيبه في إطناب يختصره أحيانا من كتابَيْ عبد القاهر، وأحيانا من كتاب (السكاكي) مع شيء من التهذيب فيه، ومع كثير من النقد الذي يفصِّله أحيانا، ويرمز إليه أحيانا بقوله: "وفيه نظر"، وبهذا جاء (الإيضاح) وسطا بين إيجاز التلخيص، وإسهاب (عبد القاهر). وكان بهذا هو الكتاب الممتاز على غيره من كتب البلاغة القديمة.

ولكنه على هذا لم يُرزَق من الحظوة عند المتأخرين ما رُزِق التلخيص؛ لأنهم شُغِفوا بالمتون حفظا وشرحا. وقد نظروا إلى التلخيص على أنه متن من المتون، فشغفوا بحفظه وشرحه.

وكان من السابقين إلى شرحه (سعد الدين التفتازاني) (ت ٧٩٢هـ)، من علماء العَجَم؛ فوضع له شرحا مطوّلا سماه (المطول)، وشرحا مختصرا سماه (المختصر). وكان (سعد الدين) من علماء العجم الذين تأثروا بـ(السكاكي) في طريقته التقريرية، وفي ضعف أسلوبه؛ لضعف سليقته العربية، بل كان هو وأمثاله ممن أتى بعد (السكاكي) من علماء العجم أضعف منه ذوقا أدبيا، وسليقة عربية؛ فمضوا في الطريقة التقريرية إلى أن وصلوا إلى نهايتها في البعد عن الذوق الأدبي، ثم أخذوا ينشرونها هنا وهناك إلى أن غزت علماء العرب، وغزت جميع العلوم من عربية، إلى دينية، إلى غيرها من العلوم، وصارت عنايتها بتقرير عبارات المتون أكثر من عنايتها بتقرير مسائل العلوم.

ثم تَهَافتَ المتأخرون من علماء البلاغة على شرحَيْ (سعد الدين) علي التلخيص، يضعون عليهما الحاشية بعد الحاشية، ويضعون على الحاشية التقرير بعد التقرير...ولو أن كل هذا في صميم مسائل البلاغة لهان الخَطْب، ولكن أكثره في بحوث خارجة عن المسائل، وفي أسلوب ركيك يُفْسِد ملكة البلاغة؛ فإذا كانت فيه فائدة قليلة؛ فإنها تضيع في هذا الخِضَمّ الذي لا فائدة فيه.

ثم بيّن سبب تأليفه (بغية الإيضاح) ناقدًا الشروح والحواشي، حيث يقول: "ولما كان كتاب (التلخيص) كالأصل لكتاب (الإيضاح)؛ كان هذا مما يدعو قارئه إلى أن يرجع في كثير من مسائله إلى ما وُضع على كتاب التلخيص من شروح وحواشٍ وتقارير؛ فإذا رجع إليها غرق في ذلك الخضم

من البحوث التي لا طائل تحتها، وضاع به ما يكتسبه من كتاب الإيضاح من ذوق أدبي؛ لأن تلك الشروح والحواشي والتقارير تغطي عليه، فرأيت أن أنأى بقارئ كتاب الإيضاح عن تلك الشروح والحواشي والتقارير؛ بوضع تعليقات عليه"[1].

تعليق ورد ونقد :

هذا ما قاله الشيخ (عبد المتعال الصعيدي) في مقدمة كتابه (بغية الإيضاح)، وهو _كما نصّ هو شرح للإيضاح، أو "وضع تقارير عليه"، هذه عبارته هكذا "تقارير"، ومع ذلك نجده من أول الكلام وحتى آخره ينقد (السكاكي) ومدرسته، كما ينقد الحواشي والتقارير.

وقد بدأ كلامه بمدح الشيخ (عبد القاهر الجرجاني)، ومدح (السكاكي)؛ لأنه من تلاميذ الشيخ الإمام، لكن الفرق بينهما _على حد قوله_ أن (السكاكي) كان ناقدًا، غير أن الشيخ (عبد القاهر) كان أديبًا، فقد كانت العجمة غالبة على أسلوبه.

والحق أن كلام الشيخ (عبد المتعال الصعيدي) كان الغرض منه هو نقد (السكاكي) فحسب، دون مراعاة أي شيء آخر.

ولست أدري ما معنى قوله: "ولا شك أن (السكاكي) بهذا يعد إلى حدٍّ ما من تلاميذ مدرسة (عبد القاهر)"؟!.

---

[1] مقدمة بغية الإيضاح للشيخ/ عبد المتعال الصعيدي،ص٦،٧، ط مكتبة الآداب، ١٤١٢هـ_١٩٩١م.

(السكاكي) كان تلميذًا في عصره للشيخ الإمام (عبد القاهر)؛ فقد قرأ له كتابيه (الدلائل والأسرار) وأفاد منهما كثيرًا _كما نص هو على ذلك_ لكنه لم ولن يكتب بطريقة الشيخ الإمام، فلم يكتب (الزمخشري) وهو من أكثر من أفاد من (عبد القاهر) بطريقة شيخ البلاغيين، بل لم يكتب (الرازي) وقد حاول تلخيص كتابي الإمام (عبد القاهر) في كتابه (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) _بطريقة الشيخ الإمام.

فمع أن (الزمخشري) و(الرازي) وغيرهما من تلاميذ الشيخ (عبد القاهر الجرجاني)، فقد كتب كل واحد منهما بأسلوبه وبيئته وطريقته التي يكتب بها.

لست أدري سببًا واحدًا يجعلنا نطلب من (السكاكي) أن يكتب كما كتب (الزمخشري)، أو كما كتب (الجاحظ)!.

وإذا كان شيخ البلاغيين أديبًا، فنحن لا ننكر ذلك، بل هو أديب الأدباء وسيدهم مع العلامة (الجاحظ) _من وجهة نظري.

لكن ليس بالضرورة أن يكون العلامة (السكاكي) أديبًا هو الآخر لمجرد أنه قرأ كتابي الشيخ (عبد القاهر).

وإذا صح ذلك _وهو لا شك غير صحيح_ فينبغي أن يكون (الرازي) أديبًا، و(الزملكاني) أديبًا، و(الزنجاني) أديبًا، و(حازم القرطاجني) أديبًا، وكلهم قرأوا كتابي الشيخ (عبد القاهر) وتتلمذوا على آرائه، ولم يقل أحد أنهم أدباء، أو ينبغي أن يكونوا أدباء لمجرد قراءتهم ما كتبه الإمام (عبد القاهر).

فـ(السكاكي) كان تلميذًا لـ(عبد القاهر)، لم ينكر أحدٌ ذلك، لكن يعاب عليه أنه لم يكن أديبًا مثله، فهذا ما لا يجب أن يؤخذ على صاحب (المفتاح).

وفي تعليل الشيخ (الصعيدي) ما يثير الدهشة؛ حيث اتهم أسلوب (السكاكي) بالغموض والتعقيد وضعف التأليف.

رأي الدكتور طه حسين :

وأقول لشيخنا، الشيخ (عبد المتعال): أي تعقيد وأي ضعف تزعمه وتردده ويردده غيرك، افتح كتاب (مفتاح العلوم) للسكاكي، واقرأ ما شئت منه، لكن _كما قال (د/ طه حسين)، في كتابه (حديث الأربعاء) :يجب التعود والصبر بدلاً من الركون للراحة، وعبارته هي:

"أنتم تريدون أن تهيأ لكم لذة الفن تهيئة، وأن يوضع لكم الطعام في أفواهكم والعلم في قلوبكم، وأنا أعرف قومًا يؤثرون هذه الحدائق الحرة التي طال عليها الزمن وألح عليها الإهمال على حدائقكم هذه المنسقة المنظمة التي أُعدت لكم إعدادًا...أعرف هؤلاء الناس وأحب أن أكون منهم، ولست أخفى عليك أني إذا لم أكره الأدب السهل الميسر فإني أوثر عليه الأدب الصعب الذى يكلفني مشقة وجهدًا لأفهمه وأذوقه... وإذا كانت كتبنا القديمة التي ألفت لشرح هذا الشعر وتفسيره تثقل عليك، فإني أجد في هذا الشعر وفى هذه الكتب متاعًا لا أجده في هذا الأدب الحديث الذي تؤثره وتتهالك عليه، والذى أحبه أنا ولكني لا أوثره بالحب ولا أختصه بالعناية، ولا أرى أنه كل شيء.

وقلت لصاحبي فيما قلت: إن ما يصرفك عن الشعر القديم يغريني به، وما يزهدك فيه يدفعني إليه، فأنت تكره هذه الألفاظ التي تكلف البحث في المعاجم، وأنت تكره هذه الشروح التي تختلط فيها الروايات، ويكثر فيها الاستطراد، وتنبث فيها مسائل النحو، وأنا أحب هذه الشروح لنفس هذه العلل"[1].

وكنت قد ذكرت هذا في بحث عنوانه: (تنبيهات السبكي واستدراكاته على البلاغيين في علم المعاني).

وكنا قد نقلنا من كلام العلامة (السكاكي) كثيرًا من النصوص، حيث قد سار (د/مطلوب) _تلميذ الشيخ (عبد المتعال الصعيدي)_ على المنهج نفسه، واتهم (السكاكي) و(العصام) في الأطول بالتعقيد وضعف الأسلوب والأخطاء النحوية.

يقول (السكاكي) في كتابه (مفتاح العلوم): "واعلم أن مستودعات فصول هذا الفن لا تتضح إلا باستبراء زناد خاطر وقاد، ولا تنكشف أسرار جواهرها إلا لبصيرة ذي طبع نقاد، ولا تضع أزمتها إلا في يد راكض في حلبتها إلى أنأى مدى، باستفراغ طوق متفوق أفاويق استثباتها بقوة فهم، ومعونة ذوق مولع من لطائف البلاغة بما يؤثرها القلوب بصفايا حباتها، وتنثر عليها أفئدة مصاقع الخطباء خبايا مخبآتها، متوسل بذلك أن يتأنق في

[1] حديث الأربعاء، د/ طه حسين، المجموعة الكاملة لمؤلفاته، ١٩/٢، ٢٠، ط دار الكتاب اللبنانى.

وجه الإعجاز في التنزيل، متنقلاً مما أجمله عجز المتحدين به عندك إلى التفصيل"[١].

هذا هو أسلوب (السكاكي) في (مفتاح العلوم)، الذي خلا من الجمال؛ لأن العجمة كانت غالبة على صاحبه، كما يدعي الشيخ (عبد المتعال)، كما أنه قد شابه كثير من الغموض والتعقيد وضعف التأليف.

وما قاله الشيخ (عبد المتعال الصعيدي) عن (السكاكي) قاله عن تلاميذه، ومنهم: (التفتازاني)، حيث قال: إن تلاميذ (السكاكي) أضعف منه ذوقًا.

يقول العلامة (التفتازاني) _تلميذ (السكاكي)_ كاشفًا عن ذوقه في استنباط المعاني: "فإن قلتَ: قد جاء استعمال الماضي مع (إذا) في السيئة منكّرًا، في قوله تعالى: {فإذا مس الإنسان ضرٌّ دعانا}[٢]، ومعرَّفًا في قوله تعالى: {وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض}[٣]، فما وجهه؟ قلتُ: أما الأول: فللنظر إلى لفظ {المس} المنبئ عن معنى القلة، وإلى تنكير (ضر} المفيد للتقليل، وإلى الإنسان المستحق أن يلحقه كل ضرر لبعده عن الحق وارتكابه الضلالات؛ فنبه بلفظ (إذا) والماضي على أن مساس قدر يسير من الضر بمثله حقه أن يكون في حكم المقطوع به.

---

[١] مفتاح العلوم للسكاكي، ص٢٤٨، ط: دار الكتب العلمية.

[٢] سورة الزمر: ٤٩.

[٣] سورة فصلت: ٥١.

وأما الثاني: فلأن الضمير في مسه للإنسان المُعرِض المتكبر، المدلول عليه بقوله تعالى: {وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه}، فنبه بلفظ (إذا) والماضي على أن ابتلاء مثل هذا الإنسان بالشر يجب أن يكون مقطوعًا به"[١].

هذا هو أسلوب (التفتازاني) من علماء العجم، وهو أحد تلاميذ (السكاكي)، الذي اتهمه الشيخ (عبد المتعال الصعيدي) بضعف أسلوبه لضعف سليقته العربية _على حد قوله.

ولو تابعنا أسلوب (التفتازاني) لألفيناه على هذا النحو في كل كتابه، لا نجد تعقيدًا، ولا ضعفًا، كما يدعي الشيخ (عبد المتعال الصعيدي).

ولو كان كذلك لما كان كتاب (المطول) للتفتازني، وهو أحد الكتب المهمة في مدرسة (السكاكي) مقررًا على الطلاب في أيام الشيخ (محمد عبده) _كما ذكر (د/ مطلوب) من ذي قبل.

يقول الشيخ (عبد المتعال): "ثم تَهَافتَ المتأخرون من علماء البلاغة على شرحَيْ (سعد الدين) علي التلخيص، يضعون عليهما الحاشية بعد الحاشية، ويضعون على الحاشية التقرير بعد التقرير...".

كان يجب على الشيخ (عبد المتعال) البحث عن أسباب عكوف المتأخرين من علماء البلاغة على كتابي (التفتازاني)، وكيف يمكن أن يخدع

---

[١] المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، لسعد الدين التفتازاني (ت٧٩٢هـ)، ص٣٢٠، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت_لبنان، ط٢، ١٤٢٨هـ_٢٠٠٧م.

(السكاكي) وتلميذه (التفتازاني) العلماء بهذه المؤلفات، وهي لا فائدة من قراءتها.

وكيف خدع (العصام) و(السيد الشريف) و(الفنري) وغيرهم بالعشرات القارئَ حين ألَّفوا كتبًا وحواشي وتقارير لا فائدة منها للبلاغة.

وهل كان كل هؤلاء بهذه الغفلة؟

أقول للشيخ الصعيدي: يجب عليك أن تقرأ بعضًا من هذه الشروح والحواشي والتقارير؛ حتى يتسنى لك الحكم عليها ونقدها، فكيف تحكم على هذا الكم الهائل من الشروح والحواشي والتقارير دون أن تكلف نفسك بقراءة ما فيها أولاً.

إن من ألّفوا هذه الشروح والحواشي علماء أفذاذ، لهم عشرات المؤلفات في شتى صنوف العلم والمعرفة، فاختر ما شئت منهم، وحاول أن تقرأ له عملاً واحدًا وستدرك حينها أنك جنيت عليه حين اتهمته بالضعف.

الضعف هو أننا ألِفنا السهل وتعودنا عليه، ونفرنا من المؤلفات التي تحتاج إلى إعمال عقل، وقمنا بنقدها وظلم أصحابها.

ثم يعود الشيخ (عبد المتعال الصعيدي) ليمدح كتاب الإيضاح) بأنه الأفضل بين كتب البلاغة التي أُلِّفت حول كتاب (مفتاح العلوم)، ثم يفاجئنا بقوله: "وضاع به ما يكتسبه من كتاب الإيضاح من ذوق أدبي".

الإيضاح والتلخيص والمفتاح كتب أُلِّفت بغرض لمّ شتات المباحث البلاغية وجمعها وحصرها في كتاب واحد، بعد قراءةٍ لكتب التراث جميعها، وبعد أن هضم (القزويني) و(السكاكي) كتابي (عبد القاهر) (الدلائل

والأسرار)، ليس هناك فرقًا بينها جميعًا سوى المنهج، حيث اختلف منهج (السكاكي) عن منهج (القزويني)، وكذلك ما أضافه صاحب المفتاح وصاحب الإيضاح، ومع ذلك فلم يختلف الأسلوب في الكتابين كثيرًا.

فأي ذوق أدبي الذي تفرد به (القزويني) عن (السكاكي) حتى يزعم أن هذا هو السبب الرئيس في شرح (الإيضاح) والتحشية والتعليق عليه في كتابه (بغية الإيضاح)!.

الشيخ الصعيدي ينقد السكاكي في البلاغة العالية :

ويقول الشيخ (الصعيدي) في أول كتابه (البلاغة العالية، علم البيان): "أظن (السكاكي) أول من فصل بين علوم البلاغة الثلاثة (المعاني والبيان والبديع)"[١].

رد وتعليق :

إن (السكاكي) لم يفصل بين علوم البلاغة؛ لأنه بدأ القسم الثالث من كتابه بقوله: "القسم الثالث من الكتاب في علمي المعاني والبيان"[٢]، وهذا التقسيم كان قد تكلم عنه من قبله العلامة (الزمخشري "ت٥٢٨هـ")، وهو المتوفى قبله بقرن من الزمن، وعبارة الزمخشري في كتابه (الكشاف) هي: "ثم

---

[١] البلاغة العالية، علم البيان، الشيخ/ عبد المتعال الصعيدي، ص١١، ط مكتبة الآداب، ١٤٢٠هـ.

[٢] مفتاح العلوم للسكاكي، ص٩١، ط البابي الحلبي.

إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح من غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق سلكها علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم، كما ذكر (الجاحظ) في كتاب (نظم القرآن)...، واللغوي وإن علك اللغات بقوّة لحييه؛ لا يتصدّى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان"[1].

هذا هو نص كلام (الزمخشري)، حيث إنه أول من نصّ على أن البلاغة (معاني وبيان) _على حد علمي_ كما إن مفهوم (المعاني والبيان) عند (الزمخشري) وأبواب هذين العلمين لم تكن قد حددت في زمنه.

على أنه لا يوجد عند صاحب (المفتاح) ما يسمى بـ(علم البديع) حتى يزعم شيخنا، الشيخ (الصعيدي) أن (السكاكي) قد فصل (علم البديع) عن أخويه (المعاني والبيان).

فكما قلنا ونكرر أن العلامة (السكاكي) ألَّف كتابه ليكون مفتاحًا للعلوم، وليس مفتاحًا للبلاغة _كما يزعم الزاعمون، كما إنه لم يكن أول من قسّم البلاغة إلى (معان وبيان وبديع)، وإنما على ما يبدو أن صاحب (المصباح) العلامة (بدر الدين بن مالك "ت٦٨٦هـ" هو من قام بذلك.

---

[1] الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ): ١/ ن، دار الريان، ط٣، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

ومع أن (ابن مالك) قد حاول تلخيص كتاب (مفتاح العلوم) للسكاكي، لكنه لم يكن أمينًا في ذلك؛ فإنه لم يلتزم بما في كتاب (المفتاح) للسكاكي، إنما خلط بين ما في كتاب (السكاكي) وما في غيره.

على أن (السكاكي) إذا كان قد قسّم (علم البلاغة) إلى (معاني وبيان وبديع)، كما ذكر الشيخ (الصعيدي)، فهذا مما يجب أن يحسب له، لا أن ينتقد عمله بالفصل بين علوم البلاغة، كما ذكر شيخنا (الصعيدي).

٣_ السكاكي في كتابات الشيخ المراغي:

الشيخ أحمد مصطفى المراغي، أحد علماء البلاغة الذين حاولوا التجديد، بهدم كل ما كُتِب بعد الشيخ (عبد القاهر) ورده.

والشيخ (المراغي) هو أحد رواد النهضة، وله جهود واضحة ومؤلفات عديدة، ولولا هجومه الغريب على (السكاكي) ومدرسته دون وجه حق لكنا قلنا فيه غير ما سنقول.

الشيخ (المراغي) وضع كتابًا قيِّمًا في تاريخ البلاغة، جمع فيه أشهر، بل أكثر المؤلفين فيها، وهو كتاب (تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها)[١]، وهو كتاب جيد رغم صغر حجمه، وإيجازه المخل عند تعريفه بعض رجال البلاغة.

والشيخ (المراغي) هو أحد من تعلموا ونشأوا وتخرجوا في (دار العلوم)، مثله مثل غيره، ممن تسلحوا بسلاح النقد والهجوم على العلامة (السكاكي) ومدرسته، فما يقوله شيخنا (المراغي) تردد عند غيره من المدرسة التي حاولت بشتى الطرق تنفير القراء من (السكاكي) و(العصام) و(القزويني)، وغيرهم، واتهامهم بالضعف العلمي، كما سبق وأشرنا عند (د/ مطلوب) والشيخ (الصعيدي).

وقد كان واضحًا من أول وهلة أن الشيخ (المراغي) يقصد (السكاكي) قصدًا، حيث قدم لصفحات تحدث فيها عن البلاغة ونشأتها، وتحدث فيها

---

[١] طبعته مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٦٩هـ_ ١٩٥٠م.

عن الشيخ (عبد القاهر)، ثم انتقل للحديث عن (السكاكي)، ومن أول سطر يقول: "الطور الثالث: عصر (السكاكي) و(العضد) و(الطيبي) و(الخطيب) و(بدر الدين بن مالك)، وقد ابتدأ هذا الطور بكتاب (المفتاح)، الذي وضعه (السكاكي)، وسماه (مفتاح العلوم)، وفي هذه الآونة كان للمنطق والفلسفة سلطان مطاع، لا يرد له قول، ولا ينقض له أمر، وأصبحت أساليب العربية تقاس بحدود المنطق ورسومه، ولا يقام لها وزن إن لم يجللها بميسمه، ويختمها بطابعه، ولا اعتداد لها إن لم يكن لها منه طفراء، ويكون لها إليه انتساب واعتزاء، وصار الكاتب والشاعر يشيد بذكراهما، ويحلي كل منهما كلامه بحلاهما، وعلى مقدار ما يوضع من مصطلحاتهما في الكلام يعلو شأنه، ويرتفع في الأعين قدره، وصار الإغراب بذكر الكم والكيف والأين والمتى، والعدم والملكة والماهية، والكيفية و(أرسطو) و(أفلاطون)، والطبيعة وما وراء الطبيعة، والمهملة والكلية والجزئية، والسالبة والموجبة، والكلي والجزئي، والجنس والفصل والعرض العام والخاص، والمعدولة والمحمول والموضوع _شنشنة الأدباء والمتأدبين، ولا تروج سوقٌ لأديب أو شاعر إلا إذا نهل من معينهما وارتوى من حوضهما، حتى بلغ الأمر بـ(السكاكي) أن الاستعارة والكناية وغيرهما من مسائل علم البيان ما هي إلا أقيسة منطقية وإلزامات يستعملها المتكلمون؛ لإقناع المخاطبين بما يريدون إثباته أو نفيه من نظريات وآراء.

وهاك ما قاله في كتابه لتعلم منه كيف كان الداء دويًّا، وعلاجه مستعصيًّا، لا يرجى له برء، ويعز منه الشفاء، قال: (وإذ قد تحققت أن علم

المعاني والبيان هو معرفة خواص تراكيب الكلام، ومعرفة صياغات المعاني، ليتوصل بها إلى توفية مقامات الكلام حقها بحسب ما يفي به قوة ذكائك، وعندك علم أن مقام الاستدلال بالنسبة إلى سائر مقامات الكلام جزء واحد من جملتها، وشعبة فردة من دوحتها، علمت أن تتبع تراكيب الكلام الاستدلالي، ومعرفة خواصها مما يلزم صاحب علم المعاني والبيان)"[1].

رد وتعليق :

نقلت كلام الشيخ (المراغي) كاملاً، وجعلت القارئ يشاركني قراءته؛ ليتضح كيف أن الشيخ (المراغي) ومن سار على دربه قد حاولوا بشتى الطرق إظهار عيوب كتاب (المفتاح) للعلامة (السكاكي)، حتى لو لم يقل بها صاحب (المفتاح).

والحق أن علم الدلالة ومبحث الدلالة الذي تحدث عنه (السكاكي) وتبعه العلامة (القزويني) في ذلك، هو بحث من أهم البحوث البلاغية المفيدة للبلاغة والبلاغيين، لكن تناول العلامة (السكاكي) ومن تبعه لها قلل من قيمتها، ونفّر القارئ منها، وكان يجب علينا شرح ذلك وتوضيحه، بدلاً من نقد (السكاكي) ومدرسته.

فلمْ يستفد البلاغيون من هذا المبحث الاستفادة المرجوة التي يجب أن تكون.

---

[1] تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، أحمد مصطفى المراغي، ص٢٧، ٢٨، ط مصطفى البابي الحلبي.

وحديث العلامة (السكاكي) عن "الملكة والماهية والكيفية..." كما ذكر الشيخ (المراغي) في نقده، هو حديث يناسب عصر (السكاكي) والقرن السابع الهجري الذي نشأ فيه، ولم يستغرق كلامه عن ذلك الصفحات، حتى يجعل الشيخ (المراغي) يوهمنا أن الكتاب برمته يتكلم عن ذلك.

أما النص الذي استشهد به الشيخ (المراغي) ونقله عن (السكاكي)، واتهمه فيه بإدخال مبحث (مقام الاستدلال) في البلاغة، وإقحامه ما ليس من البلاغة فيها، فلعل الشيخ (المراغي) لم يفهم كلام (السكاكي) ولم يقرأه جيدًا.

ونقول أن هذا النص هو آخر كلامٍ قاله العلامة (السكاكي) في القسم الثالث، وهو ليس من علم المعاني، حتى يزعم شيخنا (المراغي) بإدخاله في البلاغة.

وإنما عنون له (السكاكي) بـ(الكلام على تكملة علم المعاني)، والدليل على ذلك أن كل شراح (المفتاح) كانت هذه العبارة التي نقلها الشيخ (المراغي) هي آخر نص ذكروه في شرحهم لكتاب (مفتاح العلوم) أو القسم الثالث منه.

سبب إقحام الاستدلال في البلاغة من وجهة نظر شارح المفتاح الشيرازي :

وإذا أردنا أن نفهم لماذا أقحم العلامة (السكاكي) _على حد قول (المراغي)_ الاستدلال في علم المعاني؛ فعلينا أن نقرأ كلام شراح (المفتاح)، لندرك ذلك، يقول العلامة (الشيرازي):

"قول (السكاكي): (وإذ قد تحققت أن علم (المعاني والبيان) هو: معرفة خواص تراكيب الكلام، ومعرفة صياغات المعاني)، وهو على طريقة اللف والنشر؛ لأن معرفة خواص تراكيب الكلام هي (علم المعاني)، ومعرفة صياغات المعاني هي (علم البيان)، ليتوصل بتلك المعرفة التي هي الخواص والصياغات إلى توفية مقامات الكلام حقها.

وعندك علم أن مقامات الاستدلال بالنسبة إلى سائر مقامات الكلام جزء واحد من جملتها، وشعبة فردة من دوحتها. علمتَ أن تتبع تراكيب الكلام الاستدلالي ومعرفة خواصها مما يلزم صاحب (علم المعاني والبيان)؛ لأن تتبع خواص تراكيب الكلام الاستدلالي بحسب مقام الاستدلال، فلهذا يلزمه معرفة خواصها.

وحين انتصبنا لإفادة تتبع تراكيب الكلام مطلقًا لزمنا أن لا نضن بشيء هو من جملته، أي: من جملة تتبع تراكيب الكلام مطلقًا، وهو تتبع تراكيب الكلام الاستدلالي، ومعرفة خواصها، (وأن نستمد الله التوفيق في

تكملته)، أي: تكملة (علم المعاني)، وهي تتبع، بل معرفة خواص تراكيب الكلام في الاستدلال"[١].

رأي السيد الشريف في شرح المفتاح :

ويقول شارح آخر للمفتاح، هو (السيد الشريف): "والمقصود بيان أنه يجب عليه أن يشرع في تكملة علم البلاغة، وذلك أنَّ من جملة مقامات الكلام مقام الاستدلال على المطالب التصديقية المتوقَّفة على تصورات أطرافها المحتاجة إلى الحد، فلِزم صاحب علم المعاني والبيان معرفُة الخواص الاستدلالية، ومعرفة تأديتها بالطّرق المتفاوتة في وضوح الاستلزام.

والمصنف لما انتصب لإفادة هذا العلم وجب عليه أن لا يضن بشيءٍ هو من جملته، فوجب أن يورد في كتابه علم الاستدلال المشتمل على علم الحد، لأنه جزءٌ من علم البلاغة، كما صرح به فيما مر وحقَّقه ههنا"[٢].

التعليق علي كلام شراح المفتاح :

فالحق الذي يجب أن يعترف به كل منصف، أن (السكاكي) _وكما هو واضح من كلام شارحي (المفتاح)_ وضع هذه التكملة؛ لأنها من جملة

---

[١] شرح مفتاح العلوم، المسمى (مفتاح المفتاح)، للعلامة الشيرازي، تحقيقًا ودراسة ونقدًا، ص١٣٧٥، لأستاذنا، الأستاذ الدكتور/نزيه عبد الحميد السيد فراج.

[٢] شرح مفتاح العلوم، المسمى (المصباح)، للسيد الشريف الجرجاني، دكتوراه، تحقيق أستاذنا، أ.د/ فريد محمد بدوي النكلاوي، ص٩٦٣، ١٩٩٧٧م.

مقامات الكلام التي ينبغي الإشارة إليها؛ لأن معرفة خواصها مما يلزم صاحب (علم المعاني) و(علم البيان).

ولأن هذه الأمور تعد إضافة إلى معرفة العلمين لم يذكرها العلامة (السكاكي) إلا بعد أن فرغ من حديثه عن (علمي المعاني والبيان).

ولم يتطرق شراح التلخيص لها بالشرح كما فعلوا مع العِلمين.

فمبحث الاستدلال الذي ظل الشيخ (المراغي) يتحدث عنه ليثبت أنه ما كان يجب أن يقحم عند البلاغيين هو من أمتع الموضوعات البلاغية التي يجب أن ندرسها، إن أحسنّا دراستها، وعالجنا الموضوع المعالجة التي يجب أن يستفاد منها.

لكنا وبدلاً من ذلك تصيَّدنا الخطأ للعلامة (السكاكي) ومدرسته في إقحامهم لمثل هذه الموضوعات في البلاغة.

على أن عبارة (التتبع) التي ذكرها (السكاكي) في تعريفه كأنها تفسير لهذا المبحث.

وظل الشيخ (المراغي) ينقد (السكاكي) في مبحث (الدلالة)، وأنه لا صلة بين (علم الدلالة) و(علم البيان)، كما ذكر (السكاكي).

وأقول: على حد علمي لم يتحدث أحد عن الدلالة واستفادة البلاغة منها كما تحدث عنها (السكاكي)، لكن كتابة عصر (السكاكي) هي التي حالت دون فهم ما كتبه صاحب (المفتاح)، وما أراده من هذا المبحث القيم.

وكما تحدث الشيخ (المراغي) عن مبحث (الدلالة) عند (السكاكي) ونقده فيه، تحدث عن مبحث (الجامع)، في باب (الفصل والوصل)، ومبحث

وجه الشبه. ثم يقول بعد نقد طويل للسكاكي ومدرسته: "وهكذا ترى (السكاكي) يسير قدمًا في حشو كتابه بالمصطلحات المنطقية.

الشيخ المراغي يعود ويمدح السكاكي بعد نقده :

ثم يقول _منصفًا (السكاكي) ومدافعًا عنه: "ومع كل هذا فقد كان في قلمه أثارة من الأسلوب الأدبي، الذي درج عليه من سبقه في علوم الفصاحة، فنحن إن أخذنا عليه تلك النبْوة في الأسلوب، والشغف بالمصطلحات المنطقية والفلسفية، نغتفر له تلك الهناة، كفاه ما قام به من جليل العمل في تهذيب مصطلحات هذه الفنون، والسير بها قدمًا نحو الكمال في استيفاء مباحثها، وتخليص أقسامها بعضها من بعض، حتى صارت متمايزة مختلفة المناحي والأغراض، بحسب ما تراءى له وظنه مستقيمًا جهد الطاقة.

وفي الحق أن كتابه يعد خاتمة المؤلفات في هذه الفنون، فبه تمت مباحثها، وأصبح لكل علم منها كيان مستقل، ووحدة خاصة عرف بها الغرض الذي لأجله يدرس، وكل من جاء بعده من المؤلفين اتبع سبيله وسار سيرته، ولم يأت بجديد، بل فسر مبهمًا، أو فصّل مجملاً، أو اختصر مطوّلاً"[1].

التعليق على مدح الشيخ المراغي للسكاكي :

حينما تقرأ كلام الشيخ (المراغي) السابق، وتتأمله جيّدًا، وتعيد قراءته مرات؛ ستدرك أن شيخنا يدرك جيدًا قيمة كتاب (المفتاح)، وسبب

[1] تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، ص٣٢، ٣٣.

عكوف الشراح عليه، وإعجابهم به، حيث ذكر سيادته خلاصة عمل (السكاكي) وجهده في كتابه.

ولسنا هنا بصدد تكرار ما عدده شيخنا، لكن فقط لفت نظري بعض العبارات التي حاول الشيخ (المراغي) أن يدسها في ضمن عبارات المدح، وأن يحاول أن يجعلنا نقر بوجهة نظره فيما أخذه على كتاب (السكاكي).

يظهر هذا من قوله: "فقد كان في قلمه أثارة من الأسلوب الأدبي، الذي درج عليه من سبقه في علوم الفصاحة".

وهذه العبارة بنصها وفصها نقلها عنه (د/ مطلوب)، وقد علقت عليها سلفًا، لكن لفت نظري قوله: "الذي درج عليه من سبقه في علوم الفصاحة"، وكنت قلت من قبل أن العلامة (السكاكي) قارئ جيد لكل ما كتب قبله في البلاغة والفصاحة، ولم يكتب (مفتاح العلوم) إلا بعد التزود بثقافات متعددة، ويظهر هذا في كل سطر من سطور كتابه.

أما مسألة أنه كان في قلمه أثارة من الأسلوب الأدبي؛ فالسبب فيها تنوع القراءة منذ (الجاحظ) ومرورًا بالشيخ (عبد القاهر).

وإذا كان أسلوب (السكاكي) يعلو وينخفض في كتابه، ويميل إلى الجانب الأدبي أحيانًا، ويكسوه الجانب العلمي كثيرًا؛ فهذا يتوقف على المسائل البلاغية التي يتناولها في كتابه.

فلا مفر من التذكير أن (السكاكي) ألّف كتابه (مفتاحًا للعلوم)، فليس هو كتاب (أسرار البلاغة) أو (دلائل الإعجاز)، كما أنه ألّفه بغرض لمّ شتات ما تبعثر من الألوان البلاغية في الكتب المؤلفة قبله.

كما إن هناك سببًا قويًّا هو عصر (السكاكي) وطريقة التأليف في زمنه.

ولذلك أعجبني إنصاف الشيخ (المراغي) حين قال: "كفاه ما قام به من جليل العمل في تهذيب مصطلحات هذه الفنون، والسير بها قدمًا نحو الكمال في استيفاء مباحثها، وتخليص أقسامها بعضها من بعض"، هذا ما يجب أن يقوله كل منصف وكل قارئ لسفر (السكاكي) العظيم، فلو لم يكن للسكاكي من جهد سوى هذا لكفاه، فكيف والكتاب برمّته شاهد على جهد الرجل؛ فقد استطاع (السكاكي) بهذا الكتاب أن يحفر اسمه في تاريخ البلاغة، ومهما قيل من نقد غير مدروس فلن يقلل شيئًا من عمله.

ومما لفت نظري في كلام الشيخ (المراغي) السابق: "وكل من جاء بعده من المؤلفين اتبع سبيله وسار سيرته، ولم يأت بجديد، بل فسر مبهمًا، أو فصّل مجملاً، أو اختصر مطوّلاً".

وهذا الكلام هو قدح في عمل أفذاذ عماليق، شرحت الكتاب وعلقت عليه، كـ(القزويني) و(التفتازاني) و(العصام) و(السيد الشريف) و(الشيرازي) و(الفنري) و(السبكي) و(ابن يعقوب المغربي) و(طاشكبرى زاده) و(الكرماني) و(البناني) و(والإنباني)، وغيرهم كثير، لا يمكن حصرهم، فالقارئ المنصف لهذه الشروح والحواشي سيدرك بعد صبر أنها درر بها من العلم حمل بعير، فليست مجرد مؤلفات لتفسير مبهم أو تفصيل مجمل، أو اختصار مطول - كما زعم شيخنا العلامة-، فقد يمكن أن يقال هذا عند النظرة الأولى لهذه الشروح والحواشي، لكن القارئ الجيد لها المتأمل في جهد أصحابها فيها، والغرض الحقيقي من تأليفها سيدرك قيمتها الحقيقية،

وسيعلم _وكما قلت وكررت_ أن هؤلاء العلماء ليسوا بهذه الغفلة حتى يكون الغرض من تأليف كتبهم هو مجرد تكرار ما سطره غيرهم، هذا هو القول المنصف، وما عداه لا يعتد به، ولا يجب أن يعتد به.

نقد الشيخ المراغي للقزويني :

ويقول شيخنا (المراغي) عن أحد شراح (المفتاح) والمستفيدين مما كتبه: "ومن العجيب حقًّا أن يدعي (الخطيب القزويني) أن كتابه تلخيص للمفتاح وحده، مع أنه ملخص من كتب عدة، فلعبد القاهر في كتابيه: (أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز)، فيه الشيء الكثير، الذي يتضح وضوحًا تامًّا بمراجعة الكتابين، كما للأمير (ابن سنان الخفاجي) في (سر الفصاحة) حظ وافر من المقدمة، إذ مقدمته لا تعدو أن تكون مقدمة (ابن سنان) بأسلوبها وأمثلتها وشواهدها مع تغيير طفيف، وكان من الأمانة العلمية أن لا يغمط هذين العالمين فضلهما على كتابه، بل يشير إلى ما لهما من عمل واضح"[١].

وهذا حق، فكما استفاد (السكاكي) من كتابي (ابن سنان) والشيخ (عبد القاهر) وغيرها من الكتب فقد كانت استفادة (القزويني) أكبر وأوضح.

[١] تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، ص٣٤.

رأي الشيخ المراغي في الشروح والحواشي بعد السكاكي :

ويقول الشيخ (المراغي) عن الشروح والحواشي بعد (السكاكي): "وما زال التأليف ينحدر من المستوى الأدنى حتى وصل إلى حد الإلغاز، وتبارى المؤلفون في الاختصار، حتى احتيج إلى حواش تبين مغازي الشراح من عباراتهم، وتشرح مقاصدهم وأغراضهم، ولكن لم تكن الحواشي في عباراتها بأوضح بيانًا من الشراح، فأصبحت الحاجة ملحّة إلى وضع تقريرات توضح ما انبهم من تلك الشروح والحواشي؛ فوصلت الحال إلى ما يشبه التسلسل، واستدعى الحال طول النظر فيها وإعادة البحث، لكنه بحث عقيم، إذ هو بحث في الصيغ والألفاظ، لا في فقه العلم ودرس مسائله، ومن ثَم كانت نتيجة مُدارستها ضئيلة لا تستحق العناء والتعب الذي يحصل من مدارستها، وكلنا جدّ عليم بما يلاقيه الناظرون فيها من الكد والجهد، الذي يولد السآمة والملل، وكثيرًا ما يؤدي ذلك إلى اليأس من متابعة الدرس وترك دور العلم، لا زهدًا في العلم ولا تمردًا عليه، ولكن ذلك لصعوبة وسائله واعوجاج طرقه"[١].

التعليق والرد علي نقد الشروح والحواشي :

وأقول لأستاذنا العلامة: هذه الشروح والحواشي تحتاج إلى كدّ وجهد حتى نستخرج منها علمًا لا يوجد إلا فيها، ولا نجده في كثير من الكتب التي

[١] السابق، ص٣٩.

ألّفها أصحابها في البلاغة دون فائدة مرجوة منها، أما هذه الحواشي والشروح فإنها لا تولِد السآمة والملل - كما ادعيت- فمن اعتاد على قراءتها لا يمكنه قراءة غيرها لما يجده من متعة في هذه الشروح والحواشي، وللشيء متعة لا تعاد لها متعة إذا نِيل بعد جهد، وإذا حصل بعد تعب ومشقة، كما ذكر شيخي وشيخك الإمام (عبد القاهر الجرجاني) في كتابيه، وأؤكد لشيخنا الشيخ (المراغي) أن كثرة قراءتي لهذه الشروح والحواشي تجعلني أحس أن غيرها من الكتب لا يعادلها، لما تحويه هذه النفائس من علم غزيز لا يؤتَى لكل أحد.

ويقول الشيخ (المراغي) مسفّهًا هذه الحواشي: "وقصارى القول أن أساليب العلماء في هذه الفنون أثواب أسمال، ليس فيها رُواء ولا بهجة للناظرين، لا تقرُّ برؤيتها العيون، ولا تستمتع بقراءتها العقول، فنحن إذا سبرناها كتابًا كتابًا، وقلبنا صفحاتها وقرأناها بابًا فبابًا، لنرى أيها يصح أن يكون نبراسًا يستضاء بهديه، أو أنموذجًا ينبغي أن يتأسى به، لا نجد من بينها طلبتنا، فالعجمة قد ملكت عليها أمرها ومصطلحات المنطق والفلسفة جلبت عليها بخيلها ورَجِلها، فإذا أنتَ تاقت نفسك أن تقرأ منها كتابًا خُيِّل إليك أنك بين يدي (أرسطو) يجاذبك الحديث وتجاذبه، ويشدك وأنت تدفعه في غير هوادة ولا رفق، فما أقدرها أن تكون مؤلفات تُعلِّم القدرة على الحوار والجدل، وترشد إلى طريق التغلب على الخصم في المناظرة، وأخلق بها بعدئذ أن تبعد الفائدة المرموقة عن طالبيها، فالغايتان تتباعدان

ولا تتلاقيان، وتفترقان ولا تجتمعان؛ فالأولى تشحذ الفكر، وتوسع مدراك العقل، والثانية ترقق الشعور والخيال، وتنمي العواطف والوجدان"[١].

إن هذا الكلام لا يجب أن يخرج من عالم كبير كالشيخ (المراغي)، وما يجب أن ينطق به، أو يسطره؛ لأنه لا يدل على شيء سوى عدم درايته بما يقوله؛ حيث حاول بشتى الطرق أن يُسقط عصورًا من البلاغة اختلف التأليف فيها نتيجةً لاختلاف الزمن وطريقة التأليف في هذه الشروح والحواشي _كما قلت وكررت.

وأقول: إذا كانت هذه الكتب ليس فيها رواء ولا بهجة للناظرين، ولا تقر برؤيتها العيون كما ادّعى شيخنا العلامة؛ فلِم ألّف كتابه (علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع) على نفس النهج ونفس الطريقة، ونفس العلوم والأبواب والفصول مع تغيير طفيف يناسب العصر الذي يعيش فيه شيخنا العلامة؟!.

لِمَ ألّف شيخنا بطريقة (السكاكي) و(القزويني) وأصحاب الشروح إذا كانت هذه الطريقة لا تروقه؟!.

ولِمَ اختار هو وشيخنا (الصعيدي) كتاب (الإيضاح) نموذجًا للتأليف؟!.

لم يزد الشيخ (المراغي) شيئًا في كتابه (علوم البلاغة) على ما قاله العلامة (السكاكي) وتلميذه (القزويني)، ومع ذلك ادّعى سيادته التأليف البلاغي والتجديد في البلاغة، كما صنع الشيخ (عبد المتعال الصعيدي).

---

[١] السابق، ص٤٠.

وقول شيخنا: "فنحن إذا سبرناها كتابًا كتابًا، وقلبنا صفحاتها وقرأناها بابًا فبابًا، لنرى أيها يصح أن يكون نبراسًا يستضاء بهديه، أو أنموذجًا ينبغي أن يتأسى به، لا نجد من بينها طلبتنا" = قول عجيب وغريب، وفيه تجنّ واضح على هذه الدرر التي ألّفها أصحابها على مدى قرون طويلة، حكم عليها كلها شيخنا (المراغي) بأنها لا قيمة لها، ولا فائدة منها، حتى لو تصفحتها بابًا بابًا، وفصْلاً فصلاً؛ لن تجد فيها بغيتك.

وأقول لسيادته: هل تصفحتَها كتابًا كتابًا، وحاشية حاشية حتى تحكم عليها هذا الحكم العام!.

بل سأزيد وأقول له: هل تصفحتَ كتابًا واحدًا وقرأته كاملاً حتى تحكم عليه وعلى أصحابه!.

هل تصفحتَ المطول، والأطول، وعروس الأفراح، ومواهب الفتاح، وغيرها، من عشرات الشروح ومئات الحواشي والتقارير.

كيف سولت لك نفسك أن تنفر جيلا بل أجيال من هذه الشروح والحواشي وأنت لم تقرأها أنت وغيرك؟!.

لا أدري سببًا واحدًا لذلك يجعل شيخنا العلامة يقول ما قاله عن الشروح والحواشي، وأن يتهم أصحابها _وهم الأعلام_ بالخطأ والغفلة والجهل.

ولست أدري، هل ما بين أيدينا من شروح وحواشي هي هي ما يتحدث عنه شيخنا العلامة، أو أن هناك شروحا وحواشي أخرى حتى يتهم أصحابها أن كل ما كتبوه ما هو إلا تكرار لكلام (أرسطو) و(سقراط).

وإذا صحّ ذلك، فلِمَ لمْ يغير شيخنا (المراغي) منهج البلاغة ومصطلحاتها.

وإذا كان يتكلم سيادته عن طريقة التأليف والمنهج الذي اتبعه (السكاكي)، فلِمَ لمْ ينشئ منهجًا جديدًا لنتبعه!.

لا أدري، هل أراد الشيخ (المراغي) المتوفى في القرن العشرين أن يكتب (السكاكي) المتوفى في القرن السابع الهجري بطريقته نفسها؟!.

وإذا كان هو نفسه لم يستطع أن يكتب بطريقة القرن السابع الهجري _ومعه الحق ولا يجب أن يلام في ذلك_ فلِم أراد من (السكاكي) أن يكتب بطريقته وهو لم يكن قد وُلِد بعد.

لا يختلف اثنان أن ما كتبه (الجاحظ) غير ما كتبه الشيخ (عبد القاهر)، غير ما كتبه (السكاكي)، غير ما نكتبه الآن.

فقد اختلفت الأزمنة والعصور؛ فاختلفت طريقة الكتابة، وقد اختلفت المناهج والغرض منها؛ فاختلف التعبير عنها.

وإذا كان الشيخ (المراغي) _وهو العالم_ يدرك ذلك جيّدًا، ولا يخفى عليه ما قلته وما أكرره، فما الداعي لنقده (السكاكي) ومدرسته، وكل من حاول مدحه، أو القراءة لما كتبه؟!.

الذي يبدو هو أن النقد كان لمجرد النقد؛ فقد حاول الشيخ (المراغي) أن ينتصر للشيخ (عبد القاهر) وكتاباته؛ فاعتقد أن ذلك لن يكون إلا بهدم ما كتبه العلامة (السكاكي).

وإذا كان هذا ما أراده _ونحن لا نشك فيه_ فإن موقفه من مدرسة (السكاكي) ومحاوله هدم ما بناه تلاميذه، وتقزيم أعمالهم والتقليل من جهدهم وإضافاتهم في البلاغة _لن تؤثر، ولن تُقدِّم أو تؤخر؛ حيث حاول غيره ذلك _وهم كُثر_؛ وفشلوا في تنفير الباحثين والبلاغيين من هذه الكتب؛ لأن من قرأ هذه الكتب يدرك ما فيها من جهد أصحابها، ويعلم كم أضاعوا من وقت لإخراج مثل هذه النفائس التي لا يعلم قيمتها إلا من صبر على قراءتها.

يقول الشيخ (المراغي): "فلا عجب إذا رأينا أن الأساليب لم ترق بقراءة هذه المؤلفات، بل اعتورها الضعف، وزادت بها العلة، واستشرى الداء، ونخر السوس في عظامها، وصارت هياكل نزع منها الدهن واللحم، أو هي أشجار يبست أغصانها، وذبلت أوراقها، فقلَّ غناؤها، وأصبحت عديمة الجدوى.

ونحن نُسائل أنفسنا حينئذ، ونقول: أهذا العقم الذي حدث، وجعلنا لا نستفيد من دراستها شيئًا، يرجع إلى أن الدراسة لا تجدي، أو أن أسلوب المؤلفين هو الذي كان عاملاً له أثره في الوصول إلى هذه النتيجة.

وإنا لنجيبك عن هذا باختيار القسم الثاني، فأساليب المؤلفين، والتواء مناحي البحث فيها، وكدّ الفكر في فهم مغازيها ومراميها جعل

النتيجة وهمية لا حقيقية؛ حتى ليصدق فيها المثل: (أسمعُ جعجعة ولا أرى طحنًا)"[١].

يلوم شيخنا العلامة أصحابَ هذا العصر بسبب أسلوبهم، ونسي سيادته أن أسلوب كل عصر هو جزء منه، لا يمكن أن يغيره ولا يستطيع أن يغيره.

فأسلوب (الجاحظ) هو أسلوب عصره، وأسلوب الشيخ (عبد القاهر) هو أسلوب عصره، وأسلوب (السكاكي) كذلك، كما أن أسلوب شيخنا (المراغي) نفسه هو أسلوب عصره؛ فلا يجب أن نتهم الشيخ (عبد القاهر الجرجاني) أنه كتب بأسلوب القرن الخامس الهجري، عصر النهضة في جميع مناحي الأدب والبلاغة، وكذلك العلوم الأخرى.

كما إنه من العبث والخطأ وعدم الفهم أن نتهم العلامة (السكاكي) أنه كتب بأسلوب عصره.

لم يشذ صاحب (مفتاح العلوم) عن طريقة الكتابة في عصره، بل كتب وألّف كما يؤلف أصحاب القرن السابع الهجري.

على أنه لا يجب أن نتهم كتابات (السكاكي) ومن تبعه بأنها تحتاج إلى تفكير وتأمل وصبر على فهْم ما فيها؛ فالشيء إذا نِيْل بعد طلب وبعد صعوبة الحصول عليه أصبح ذا قيمة، كما قال الشيخ (عبد القاهر) في أكثر من موضع من كتابه.

---

[١] السابق، ص٤١.

على أن أسلوب (السكاكي) لم يكن كله ملتوي وعسير، وصعبٌ فهمه _كما يزعم شيخنا العلامة_؛ وهاك كلامه من (المفتاح)، يقول عند تعليله للاستفهام بـ(ما) في قوله تعالى: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ}[١]: "أما (ما) فللسؤال عن الجنس، تقول: (ما عندك) بمعنى: أي أجناس الأشياء عندك، وجوابه: إنسان أو فرس أو كتاب أو طعام، وكذلك تقول: (ما الكلمة)... أو عن الوصف، تقول: (ما زيد) و(ما عمرو)، وجوابه: الكريم، أو الفاضل، وما شاكل ذلك، ولكون (ما) للسؤال عن الجنس، وللسؤال عن الوصف، وقع بين فرعون وبين موسى ما وقع؛ لأن (فرعون) حين كان جاهلاً بالله معتقدًا أن لا موجود مستقلا بنفسه _سوى أجناس الأجسام اعتقاد كل جاهل لا نظر له، ثم سمع (موسى) قال {إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ} سأل بـ(ما) عن الجنس سؤال مثله، فقال: {وما رب العالمين}، كأنه قال: أيُّ أجناس الأجسام هو، وحين كان (موسى) عالمًا بالله أجاب عن الوصف؛ تنبيها على النظر المؤدي على العلم بحقيقته الممتازة عن حقائق الممكنات، فلمّا لم يتطابق السؤال والجواب عند فرعون الجاهل عجب من حوله من جماعة الجهلة، فقال لهم ألا تستمعون، ثم استهزأ بموسى وجننه فقال: {قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ}، وحين لم يرهم (موسى) يفطنون لما نبههم عليه في الكرتين من فساد مسألتهم الحمقاء، واستماع جوابه الحكيم؛ غلظ في الثالثة، فقال: {قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ}[٢].

---

[١] الشعراء: ٢٣.

[٢] الشعراء: ٢٨.

ويحتمل _والكلام ما زال للسكاكي_ أن يكون فرعون قد سأل بـ(ما) عن الوصف لكون رب العالمين عنده مشتركًا بين نفسه وبين من دعاه إليه (موسى) في قوله: {أنا رسول رب العالمين} لجهله وفرط عتوه، وتسويل نفسه الشيطانية له ذلك الضلال الشنيع من ادعاء الربوبية وارتكاب أن يقول {أنا ربكم الأعلى}، ونفخ الشيطان في خيشومه أولئك بتسليم البهائم له إياها وإذعانهم له بذلك وتلقيبهم إياه برب العالمين، وشهرته فيما بينهم بذلك، إلى درجات دعت السحرة إذ عرفوا الحق، وخروا سجدًا لله، و{قالوا آمنا برب العالمين}، على أن يعقبوه بقولهم {رب موسى وهارون} نفيًا لاتهامهم أن يعنوا فرعون، وأن يكون ذلك السؤال من فرعون على طماعية أن يجري موسى في جوابه على نهج حاضريه لو كانوا المسئولين في وجهه بدله، فيجعله المخلص لجهله بحال (موسى)، وعدم اطلاعه على علو شأنه، إذ كان ذلك المقام أول اجتماعه بـ(موسى) بدليل ما جرى فيه من قوله: {أولو جئتك بشيء مبين قال فأت به إن كنت من الصادقين}[1]"[2].

هذا هو (مفتاح العلوم)، وهذا هو كلام (السكاكي) وتحليله في (مفتاح العلوم)، ويقول أحد الباحثين المحدَثين، بعد نقل كلام (السكاكي) السابق: "فهذا تحليل رائق للدلالة البلاغية المتفرغة عن (ما) الاستفهامية،

[1] الشعراء: ٣٠، ٣١.

[2] مفتاح العلوم، ص٣١٠، ٣١١.

وفي النص فضيلة تضاف إلى حسنات (السكاكي)، وهي تحليل مجموع الآيات الست التي ورد فيها الشاهد، دون الاقتصار على جزئية منه"[١].

أي التواء في أسلوب (السكاكي)، وأي منطق طغى على كلامه وعباراته، كما زعم شيخنا العلامة الشيخ (المراغي) _رحمه الله.

يقول أحد الباحثين المحدثين عن أسلوب (السكاكي) وتحليله البلاغي في سفره العظيم (مفتاح العلوم): "بل إن (السكاكي) لم يكتف بالتحليل البلاغي للشواهد الفصيحة، وإنما قام بتحليل بعض الأمثلة المصطنعة، كما في تحليله لقول القائل: (يكتب القرآن لي زيد)، حيث يقول _مبينًا جهات الحسن في هذا المثال: (وإذا عرفت هذا _يريد بلاغة حذف الفاعل وبناء الفعل للمفعول_ فنقول في التركيب الذي نحن فيه من مثل: (يكتب القرآن لي زيد) برفع زيد مع بناء الفعل للمفعول جهات للحسن، ومزايا نتلوها عليك؛ ليكون لك ذريعة على درك ما سواها إذا شحذنا بها بصيرتك.

ومنها: أن الكلام متى نسج على هذا المنوال ناب مناب الجمل الثلاث: إحداها يكتب القرآن لي، والثانية: الجملة المدلول عليها بزيد وهي من يكتبه، والثالثة: زيد مع الرافع المقدر وهي (يكتبه زيد) بخلافه إذا قيل:

---

[١] البحث البلاغي، روافده ومدارسه، ص٣١٥. د/محمود حسن مخلوف، مطبعة السلاموني. وينظر: الذوق البلاغي عند السكاكي، د/محمد أحمد محمد أبو نبوت، بحث نشر في مجلة كلية اللغة العربية، العدد الحادي والعشرون، ١٤٢٤هـ_ ٢٠٠٣م، ج١.

(يكتب القرآن لي زيد) بلفظ المبني للفاعل، ولا شبهة أن الكلام متى كان أجمع للفوائد كان أبلغ.

ومنها: أن الكلام متى سيق هذا المساق كان كل واحد من لفظي القرآن وزيد مقصودا إليه في الذكر، غير مستغني عنه، بخلافه في التركيب الآخر؛ فإن لفظ (القرآن) فيه يعد فضلة والتقريب ظاهر.

ومنها: أن الكلام متى سلك به هذا المسلك لم يكن أوله مطعمًا في ذكر الكاتب، فإذا أورد السامع فائدة ذكره كانت حاله كمن تيسر له غنيمة، من حيث لا يحتسب بخلافه في النظم.

ومنها: أن الكلام على ذلك النظم يكون كالمتناقض من حيث الظاهر؛ لأن كون القرآن مفعولاً فضلة فيه، يكون مُؤْذنًا بأن مساس الحاجة إليه دون مساس الحاجة إلى الفاعل، وكونه مقدماً على الفاعل، يكون مؤذنا بالاعتناء بشأنه، وأن مساس الحاجة إليه فوق مساس الحاجة إلى ما أخر، بخلافه في هذا النظم، فإنه يكون سليمًا عن ذلك، وفي هذا الوجه نظر يذكر في الحواشي.

ومنها: أن الكلام في التركيب الذي نحن فيه يفيد استناد الكتبة على الفاعل إجمالاً أولاً وتفصيلاً ثانيًا، وفي غيره يفيد استنادها إليه من وجه واحد؛ فيكون هذا التركيب أبلغ)[1].

فهذا تحليل رائع يبرز الفروق الدقيقة بين نظم ونظم، وتركيب وتركيب، وهو تحليل يَبْعد عن الغموض والتعقيد"[1].

---

[1] مفتاح العلوم، ص٢٢٧، ٢٢٨.

ويقول أحد الباحثين _بعد نقله كلام السكاكي السابق: "وإذا كانت هذه الشواهد التي حللها (السكاكي) تحليلاً يكشف عن دقة النظم فيها، ويبين وجوه الجمال التي اشتملت عليها _مع كثرتها_ قليلة بالنسبة لبقية شواهد الكتاب، فإن هذا يتلاقى مع غرضه من وضع الكتاب؛ لأن غرضه من وضع هذا الكتاب، هو ضبط أصول البلاغة، وتقعيد قواعدها، وإحكام أبوابها وفصولها، والنظر في تفاريعها، واستقراء أمثلتها اللائقة بها، ولذلك ذَكر في مقدمة حديثه عن علم المعاني أن غرضه: إيراد خواص التراكيب مجتمعة تحت الضبط والتعيين، وذلك بقوله: (وإذ قد عرفت هذا فنقول: إن التعرض لخواص تراكيب الكلام موقوف على التعرض لتراكيبه ضرورة، لكنْ لا يخفى عليك حال التعرض لها منتشرة، فيجب المصير إلى إيرادها تحت الضبط، بتعيين ما هو أصل لها، وسابق في الاعتبار، ثم حمل ما عدا شيئاً فشيئاً على موجب المساق)"[٢].

كان يجب على شيخنا (المراغي) _وهو العالم_ أن يعلم ويدرك أن أسلوب (السكاكي) هو أسلوب عصره، وطريقة تأليفه في كتابه هي طريقة عصره، وموضوعات كتابه وضبط قواعدها هي الغرض الذي أراده من تأليف كتابه.

كان يجب على الشيخ (المراغي) أن يقول عن (السكاكي) ما قاله في مفتتح كتابه (علوم البلاغة)، حيث قال: "جاء بعد من تقدم ذكرهم العلامة

---

[١] الذوق البلاغي عند السكاكي، ص١٩٩.

[٢] السابق، ص١٩٩.

أبو يعقوب، يوسف السكاكي، المتوفى سنة (٦٢٦هـ)، وألف كتابه (مفتاح العلوم)، وجمع في القسم الثالث منه زبدة ما كتبه الأئمة قبله في هذ الفنون، ونظم لآلئها المتفرقة في تضاعيف كتبهم، وأحاط بكثير من قواعدها المبعثرة في الأمهات، ورتبها أحسن ترتيب، وبوبها خير تبويب...الخ"[١].

[١] علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع»، أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ)، ص٩، المكتبة المحمودية التجارية، مصر، ط٦.

٤_ (السكاكي) في كتابات الدكتور/ شوقي ضيف:

لم يختلف (د/ شوقي ضيف) كثيرًا فيما كتبه عن العلامة (السكاكي) عن الشيخ (المراغي)، والشيخ (الصعيدي)، و (د/ مطلوب)؛ فستجد نفس الكلام ونفس الاتهامات، وترديد ما قاله غيره، إذ هي مدرسة واحدة _كما قلت_، فلقد نقل اللاحق منهم عن السابق نفس عباراته.

فأنت حين تفتح كتاب (البلاغة تطور وتاريخ)، للدكتور (شوقي ضيف)، تجده يتحدث عن البلاغيين في القرون التي تسبق صاحب (المفتاح)، وحين يأتي ذكر العلامة (السكاكي) نجده يكرر ما قاله غيره، ويسطر نفس السطور، وكأن ما قال كل الكلام هنا إنما هو شخص واحد.

نقد الدكتور شوقي ضيف للسكاكي ومدرسته :

وإليك كلامه، لتدرك ذلك بنفسك، فيقول: "وبذلك يتم تلخيص (السكاكي) لعلمي البلاغة: المعاني والبيان، وما ألحقه بهما من الفصاحة المعنوية واللفظية، وما يتبعها من المحسنات البديعية، وهو تلخيص أشاع فيه كثيرًا من العسر والالتواء؛ بسبب ما عمد إليه من وضع الحدود والأقسام المتشعبة، فإذا المباحث البلاغية تشبه غابة، بل دغلاً ملتفًّا، لا يمكن سلوكه إلا بمصابيح من المنطق، وبمباحث المتكلمين والفلاسفة... وحقًّا، استطاع (السكاكي) أن يسوي من نظرات (عبد القاهر) و(الزمخشري) علمي (المعاني والبيان)، ولكن بعد أن سوى قواعدهما تسوية منطقية عويصة؛ حتى ليصبح المنطق وأيضًا الفلسفة جزءًا منهما لا يتجزأ، وحتى ليحتاج

كتابه في هذا القسم إلى الشرح تلو الشرح، وكل شارح يضيف من أصباغ المنطق والفلسفة وعلم الكلام ما تمده به ثقافته، وكان ذلك كله إيذانًا بتحجر البلاغة، وجمودها جمودًا شديدًا، إذ ترسبت في قواعد وقوالب جافة، وغدا من العسير أن تعود إليها حيويتها ونضرتها القديمة"[١].

تعليق ونقد :

كما قلت لك لن تجدَ فرقًا بين ما قاله الشيخ (المراغي)، والشيخ (الصعيدي)، و(د/مطلوب)، فكأنك تقرأ كلامًا لشخص واحد.

نقل منهم عن الآخر نقده واتهاماته هي هي، ولذا فإني لن أرد على ما قاله أستاذنا (د/شوقي ضيف)، حتى لا أتهم بالتكرار _الذي أحسبني وقعت فيه كثيرًا_ لكنْ يمكن أن نقول لصاحب (البلاغة تطور وتاريخ)، لقد قرأت كلامك السابق عن (السكاكي)، وقرأت كتاب (مفتاح العلوم) للسكاكي وشروحه، فلو كنت منصفًا لقلت: إن كلام (السكاكي) و(الشيرازي) و(التفتازاني) يمكن فهمه والاستفادة منه بالموازنة مع كلام غيره ومنهم (د/ ضيف).

على أني فقط كنت أود أن يكون كلام (د/ شوقي ضيف) نتيجة قراءته لكتاب (مفتاح العلوم) وشروحه، وعدم فهم هذه الكتب، لكني أكاد أجزم أن أستاذنا الفاضل لم يقرأ (المفتاح)، ولم يتصفح شروح (السكاكي)، ولن أكرر ما قلته في الرد على غيره فهو نفس كلامي في الرد عليه.

---

[١] البلاغة تطور وتاريخ، د/ شوقي ضيف، ص٣١٣، ط٧، دار المعارف.

٥_(السكاكي) في كتابات الشيخ (علي عبد الرازق)[١]:

الشيخ (علي عبد الرازق) صاحب (الأمالي)، وهو أثر من آثار النزعة الحرة، في مدرسة الشيخ (محمد عبده)، وتلميذ نجيب له. قرأ له وتأثر بما كتبه.

يقول الشيخ (علي عبد الرازق) عندما تحدث عن (الخطيب) وشراحه، وكذلك العلامة (السكاكي)، تطرَّق وقتها لقضية مهمة، وهي لماذا لم يُذكر هؤلاء في تاريخ البلاغة؟!.

وحاولَ أن يجد جوابًا لهذا السؤال، ولنتركه يعرض لهذا، حيث يقول: "ولا عجب، فقد كانت كتب الإمام (الخطيب) غاية ما وصل إليه الإبداع والإتقان في (علم البيان)، ظن ذلك العلماء الذين جاءوا من بعده؛ فوقفوا بالعلم عند حده، وزعموا أن الأول لم يترك شيئًا للآخر، فليس لنا إلا أن نأخذ منهم ما أعطونا من العلوم، لا نأمل الزيادة عليه، ولا تحدثنا أنفسنا بالتغيير فيه، أو إصلاحه...، فلذلك وقفت الهمم عن تناول صميم العلم وجوهره، وانتهت قدرة المتأخرين عند تلك الكتب، ينظرون في ثناياها،

---

[١] الشيخ علي عبد الرازق: هو/ علي حسن أحمد عبد الرازق، المولود سنة ١٨٨٨م، بمحافظة المنيا، اختِير وزيرًا للأوقاف، كان أثرًا من آثار النزعة الحرة في مدرسة الشيخ (محمد عبده)، توفي عام ١٩٦٦م، بمحافظة المنيا.

له مؤلفات عديدة، منها: الإجماع في الشريعة الإسلامية_ من آثار مصطفى عبد الرازق_ أمالي علي عبد الرازق_ كتاب الإسلام وأصول الحكم.

ينظر: مذاهب فكرية في الميزان، د/ علاء بكر، ص٧٤، ط دار العقيدة. والفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي، د/ محمد البهي، ص٢٦٥. والإسلام والتجديد في مصر، تشارلز آدمر، ترجمة: عباس محمود العقاد، ص٢٥. والاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، محمد محمد حسين: ٢/ ٨٦.

ويبحثون في خفاياها، ويقلبونها ظهر البطن، ويعتصرون العلم اعتصارًا من بين جملها ومفرداتها، ذلك مما ظنوا أن العلم لا يصح إلا أن يطلب منها، وبين دفتيها، على ذلك وقف علم البلاغة عن التقدم إلا ما كان منه بحثًا في كلمة لعبد القاهر، أو جملة للسكاكي، أو تقدير مضاف في كلام الخطيب...، ولعل (السعد التفتازاني) لم يُذكر في علم البلاغة، ولم يقرن إلى أسماء أصحاب الشأن فيه، ولا يُمْكننا تعليل ذلك إلا بما أشرنا إليه من قبل، ومثل (السعد) في ذلك (السيد الشريف)، وغيرهما... فما كانوا _ولا حياء في الحق_ إلا خدّامًا لكتب السابقين، وعيالاً عليهم، دون أن يكونوا خدام علم البلاغة، من حيث ذاته.

وبرغمنا أن نقول: إن علم البلاغة كان آخر أيامه يوم كتب (الخطيب) تلخيصه، فاقتصر عليه من جاء بعده، ووقفوا أنفسهم على ما حوى، من ترتيب وقواعد، لا يميلون عنه قيد شعرة، ولا تطمح أنظارهم إلى ما وراءه، لذلك لا نجد بعد (الخطيب القزويني) من يُسند إليه في هذا الفن إصلاح، ولا يزال العلماء من لدن (سعد الدين التفتازاني) إلى عصرنا الحاضر واقفين عند (الخطيب)، متتبعين خطاه، ولا عجب، فهذا شأن كثير من العلوم العربية والدينية"[١].

[١] أمالي علي عبد الرازق في علم البيان وتاريخه، ص٣٧، وما بعدها، ط١٣٣٠هـ.

تعليق ورد على كلام الشيخ علي عبد الرازق :

وقبل الرد على صاحب (الأمالي)، سأترك (د/ مطلوب) وهو أحد تلاميذه يرد على تأليفه في البلاغة، يقول: "ومع ما بذل الإمام (محمد عبده) من جهود عظيمة في بعث البلاغة وإحيائها، إلا أنه لم يؤلف كتابًا فيه منحى أدبيًّا بعيدًا عن منحى الفلاسفة وأصحاب المنطق.

ولعل الأستاذ/ علي عبد الرازق كان من أوائل الذين انصرفوا إلى البحث في البلاغة وتاريخ فنونها، فقد كتب (أمالي علي في علم البيان وتأريخه)، ولكن هذا الكتاب لم يشمل البلاغة كلها، وإنما اقتصر على أحد فنونها وهو (علم البيان).

ولم يكن الكتاب عميقًا بعيد الأثر_والكلام للدكتور مطلوب_؛ لأن مؤلفه _كما يبدو كان يمليه على طلابه إملاءًا، ولم يكن له متسع من الوقت لتنقيحه وإكماله، وشرح ما أوجزه فيه؛ لانشغاله بأمور أخرى"[1].

ولعل هذا من العجب، أن يستشهد (د/ مطلوب) بالشيخ (علي عبد الرازق)، وأن كتابه من الكتب التي أُلِّفت في فجر النهضة، في العصر الحديث، ثم يقول الدكتور نفسه في نقده للكتاب: " ولم يكن الكتاب عميقًا بعيد الأثر...الخ"، ثم يحاول بشتى الطرق الدفاع عن صاحب (الأمالي) وكتابه، وذلك حين قال: "لأن مؤلفه _كما يبدو كان يمليه على طلابه إملاءًا، ولم يكن له متسع من الوقت لتنقيحه وإكماله...الخ"، وكتاب (الأمالي) في

[1] البلاغة عند السكاكي، ص٢٠، وأمالي علي عبد الرازق في البيان، ص٨٢.

(مكتبتي)، لم يزد فيه صاحبه سطرًا عن ما كتبه (السكاكي) ومن سبقه، فليس لصاحبه جهد واضح، أو إضافة لما كتب قبله _كما صرح (د/مطلوب) نفسه.

ونعود إلى كلام الشيخ (علي عبد الرازق) السابق، الذي نقد فيه (السكاكي) و(القزويني) وأصحاب الشروح، فنقول: لقد حاول صاحب (الأمالي) تفسير إسقاط شراح (المفتاح) و(الإيضاح) من التاريخ البلاغي، حيث قال: "إن اللوم يقع على عاتقهم، وهم المسئولون عن ذلك؛ إذ إنهم خدام للمفتاح والإيضاح، وليس لهم جهد يذكر، سوى خدمة هذين الكتابين، هذا حاصل ما ذكره العلامة (علي عبد الرازق).

والحق الذي لا مراء فيه أن ما ذكره صاحب (الأمالي) مردود جملةً وتفصيلاً، ولو خرج هذا من طالب علم مبتدئ لقبلنا خطأه، واعتبرنا ما قاله قلة اطلاع، وحداثة سن جعلته لم يعرف هؤلاء الشراح، ولم يتعايش معهم، لكنْ أن يخرج هذا الكلام من عالم له قدره، فأظن أن هذا يجعلنا نتعجب منه، بل ونشفق عليه.

ويمكننا الآن مناقشة هذا الكلام وتوجيه رفضنا له.

أما جملةً: فأكاد أزعم أن العلامة (عبد الرازق) لم يطلع على هذه الشروح كافة، ولم يقرأها تفصيلاً؛ إذ هي كثيرة تفوق الحصر.

بل أكاد أبالغ في زعمي هذا بأنه لم يقرأ شرحًا واحدًا كالمطول أو الأطول أو عروس الأفراح... وغيرها كثير.

وإذا صح ذلك _وهو لا شك صحيح_ فكيف يحق له أن يدعي ما ادعاه.

وإني على يقين أن كلامه هذا ترديد لمدرسته التي حمل لواءها الإمام (محمد عبده) والشيخ (الصعيدي) والشيخ (المراغي) وغيرهم.

وأما تفصيلاً: فحقه علينا أن نناقش كلامه، وأن نقف أمام كل سطر من سطوره؛ حتى لا نقول شيئًا ونفعل غيره.

فأما قوله: "ولا عجب، فقد كانت كتب الإمام (الخطيب) غاية ما وصل إليه الإبداع والإتقان في (علم البيان)، ظن ذلك العلماء الذين جاءوا من بعده...الخ" =فلستُ أرى سببًا واحدًا لتهكمه هذا، وإذا لم تكن هذه الكتب هي غاية ما وصل إليه الإبداع، فلماذا سار على الطريقة نفسها، ولماذا لم يغيرها هو أو أحد من مدرسته؟!.

الحق _عندي_ أن (الخطيب) ومدرسته قد وصلوا إلى غاية الإبداع، فلم يشذ (السكاكي) عن ما كتبه (الخطيب)، ولم يشذ (الخطيب) عن المدرسة التي شيد أركانها الإمام (عبد القاهر)، وأكمل هذا البناء وأتمه العلامة (السكاكي)؛ فقد جاء (القزويني) والبناء مكتمل الأركان، فوقف منبهرًا أما هذا الصرح الشامخ، مضيفًا إليه بعض الإضافات التي لا تغير من هذا التصور الذي أراده (السكاكي)، شارحًا ومحللاً ومستأنسًا بكلام الشيخ (عبد القاهر)، وحينما أتى شراح هذه المدرسة أدلى كل منهم بدلوه، وأضافوا إضافات كثيرة، وعزيزة المنال والفهم، وراحوا يتبارون في تزيين هذا الصرح وتكميل ما به من نقص، فوضعوا شروحًا على الاستعارة؛ لأنها أغمض أنواع المجاز، وأكثروا من الحديث عنها؛ فامتلأت شروحهم وحواشيهم بدرر وكنوز لن يصل إليها إلا من أراد ذلك، بالبحث والتنقيب والصبر والعرق.

أما قول صاحب (الأمالي): "فلذلك وقفت الهمم عن تناول صميم العلم وجوهره، وانتهت قدرة المتأخرين عند تلك الكتب، ينظرون في ثناياها، ويبحثون في خفاياها، ويقلبونها ظهر البطن، ويعتصرون العلم اعتصارًا من بين جملها ومفرداتها...الخ".

فإني أؤكد للعلامة صاحب (الأمالي) أن ما ذكره مدحًا ليس قدحًا، بل هو أحسن ما يمكن أن يُمدح به عالم، وإذا أراد سيادته أن يسأل عن سبب ذلك فسأتركه مع عبارات لأستاذنا، (د/محمد أبو موسى)، حيث يقول:

"ويظهر لك هذا الإتقان وأنت تطالع شروح هذه المتون، ووقفات هذه الشروح عند عبارة المصنف؛ لتبين ما وراءها من أغراض، ويدلك على أنه اختار هذه اللفظة؛ لأنه أراد كذا، ونكرها أو عرّفها؛ لأنه أراد كذا، وجاء بالفاء بدل الواو؛ لأنه أراد كذا...وأذكر هنا لغة التعريفات، وما يسميه العلماء (الإخراج بالمحترزات)، وهي غاية في التدقيق العلمي والعقلي، والألفاظ فيها توزن وزنًا.

ومن الكلمات الفاسدة والصارفة عن العلم ما يصف به المتعجلون مناقشات الشراح لعبارات المصنفين وأنها من باب المماحكات اللفظية، وهذا خطأ؛ لأنه تدقيق في لغة العلم، ولغة العلم جزء من العلم، وأن معرفة المعلومات باب، ومعرفة العبارة عنها باب آخر، ليس أقل أهمية من الباب الأول"[1].

[1] مدخل إلى كتابَي عبد القاهر، أ.د/ محمد أبو موسى، ص٢٨، مكتبة وهبة، ط١، ١٤١٨هـ_١٩٩٨م.

التعليق على كلام أستاذنا الدكتور / محمد أبو موسى :

وهذا الكلام من سيادته حري أن يكتب بماء الذهب، ويقول بعدها: "وبلاغة العبارة هنا قائمة على التدقيق العقلي واليقظة الفكرية، وهذا شيء له رجحان عند أهل العلم، يتذوقونه ويعرفون قدره، ويرفعون محله.

وليس بعيدًا أن تقول إن هذا الضرب من الصيغ البليغة التي تجدها في كتب العلماء هي أقرب إلى بلاغة الجملة القرآنية، ومتأثرة بها؛ لأن المزية في هذا الضرب معقودة على ضبط المعنى وإحكام هذا الضبط، والصنعة فيه صنعة فكر، ويقظة نفس، وتقِلُّ فيها أساليب المجاز والكناية، وهي الأقطاب التي تدور عليها صنعة البيان، ورجحان التعبير مع خلوه منها لا يكون إلا بفضل تفوق، وسبق في أصول البيان، الذي هو النحت والسبك"[١].

إذن، فكل ما قاله العلامة (عبد الرازق) في نقده هؤلاء ليس إلا حسنات يجب أن تضاف إلى ما قدموه لخدمة هذا العلم، إذ إن فهم كلام العلماء وتشقيقه وتحليله علم جليل.

=وأما قول صاحب (الأمالي): "فما كانوا _ولا حياء في الحق_ إلا خدّامًا لكتب السابقين، وعيالاً عليهم، دون أن يكونوا خدام علم البلاغة، من حيث ذاته...الخ".

=فأقول له: وهل يعاب (عبد القاهر) بخدمته لكتاب سيبويه؟! بل هل يعاب (الزمخشري والرازي) بخدمتهما لكتابي (عبد القاهر)؟!.

---

[١] السابق، الصفحة نفسها.

إننا لو ذهبنا نقف أمام كل عالم من العلماء القدماء أمثال الشيخ الإمام و(ابن سنان) و(الزمخشري) و(الرازي) و(السكاكي)؛ لوجدنا أن كل واحدٍ منهم خدمٌ للآخر _إن صح التعبير_ وهو بخدمته هذه قدّم أجل خدمة للبلاغة العربية، فليس هؤلاء إلا بناة هذا العلم ومتممو صرحه، فهل يعاب عليهم ذلك؟!.

أيقصد أنهم تلاميذ لهؤلاء الشيوخ؟ إن كان ذلك فهو حق وصدق.

أم يقصد _وهو ما أرجحه_ أنهم من شدة تأثرهم ذابت شخصيتهم وضاعت عند شرحهم لكتب هؤلاء؟!.

فهذا ما لا أقبله، ولا يمكن أن يقبله منصف؛ لأني فقط يمكن أن أقول: إن هذا الحكم يتطلب أن يكون العلامة (عبد الرازق) قد قرأ جميع هذه الشروح وهضمها واستوعبها، وهذا ما لا يمكن تصديقه!.

وأما قوله: "وبرغمنا أن نقول: إن علم البلاغة كان آخر أيامه يوم كتب (الخطيب) تلخيصه...الخ".

=فأقول: وبرغمنا أن نقول، يبدو أن تصحيح هذه العبارة: إن آخر ما قرأه العلامة (علي عبد الرازق) هو (تلخيص المفتاح) للقزويني؛ لأنه لا يمكن أن يكون قد اطلع على (المطول والمختصر وشرح مفتاح العلوم للتفتازاني)، و(المصباح والحاشية على المطول للسيد الشريف)، و(الأطول للعصام) و(عروس الأفراح للسبكي)، و(مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي)، وحاشية عبد الحكيم، والدسوقي، والبناني، والإنبابي، وطاشكبرى زاده، وغيرها كثير وكثير جدًا...=أقول: لا يمكن أن يكون قد اطلع على

هذه الشروح وغيرها أضعافًا مضاعفة، ثم تسول له نفسه أن ينطق بهذا الحكم.

وإني أكاد أجزم _لا على سبيل المباهاة_ أني قد اطلعت على كل هذه الشروح وغيرها كثير جدًّا، وأنها ممتلئة بالدرر واللطائف، والتوجيهات والإضافات والكنوز.

فإذا كانت هذه الشروح والحواشي لم تذكر في تاريخ البلاغة _وهذا ما لم يحدث_ فليس على أصحابها من لوم، بل اللوم على من أسقطها من تاريخ البلاغة، وهي أنفس ما فيه وأندره.

٦_السكاكي في كتابات الدكتور/ محمد نايل:

هو صاحب كتاب (البلاغة بين عهدين، في ظلال الذوق الأدبي وتحت سلطان العلم النظري)[١].

ولن نطيل الوقوف أمامه كما أطلنا مع غيره، حتى لا نكرر ما قلناه سلفًا، لكني فقط سأكتفي بسطور من كتابه، حيث هاج وماج فيه على (السكاكي) ومدرسته، واتهمهم _كما ذكر غيره_ بالجمود والجفاف والذبول.

يقول سيادته تحت عنوان (أمراض هذا العصر وعلله): "يبدأ العصر الثاني بأبي يعقوب السكاكي، المتوفى سنة (٦٢٦هـ)، ثم ينتهي إلى النهضة الحديثة في أيامنا الحاضرة.

وهذا العصر قد ركدت فيه ريح الأدب، وغاض معين الطبع والذوق، ونفضت أسواق الشعر ونواديه، وتعطلت أوتاره وآلاته، وأصيبت اللغة بالجفاف والذبول، حتى عاد الشعر _وهو عروس الأدب والبيان_ رسومًا بالية، وصورًا خاوية، لا حياة بها، ولا روح فيها، فلم يكن فيه من معنى الشعر إلا القافية والوزن.

وإذا نضب معين الشعر والأدب وخبا نور القريحة والطبع، فقد اختل كل شيء يتصل باللغة وفنونها، وداخَلَها الفساد باسم الإصلاح، ونهشتها الأمراض من كل جانب، وكذلك حال اللغة وفنونها في هذا العصر، انقطع

---

[١] البلاغة بين عهدين، في ظلال الذوق الأدبي وتحت سلطان العلم النظري، د/ محمد نايل، دار الفكر العربي.

عنها غيث الأدب، وتناولها علماء غير أدباء، فاستحالت على أيديهم إلى معارك حول الحدود والقواعد، استعانوا فيها بكل ما كان لديهم من معارف عقلية، من منطق وفلسفة وكلام، وباتت على كثرة الجدل والخلاف، وكثرة التقسيم والتحديد تشكو الجفاف والسقم والعقم، وما فنون اللغة _إذا لم يجدها غيث الأدب_ إلا حديقة ناضرة لم يسعفها الماء، فجفت أغصانها، واصفرت أوراقها، وذبلت أزهارها، وعادت نضرتها اكتئابًا، وأنسها إيحاشًا.

وقد خضعت البلاغة لسلطان غير سلطان الذوق، وتحكم فيها المنطق والفلسفة، وعدا عليها الكلام والأصول، وتطفل عليها النحو واللغة، وتدخلت فيها كل هذه الفنون، وأخذت من ذلك نصيبًا غير قليل، حتى أوشكت معالم هذا الفن أن تختفي بين هذا الدخيل المغير، وشاهدُ ذلك ما خلفه هذا العصر من كتب هي الآن بين أيدينا، يتعالى الصراخ منها والتألب عليها...

وقد كان (السكاكي) _والكلام ما زال للدكتور نايل_ كما قلنا أول هذا العصر، وهو يوشك أن يكون آخره _أيضًا_ لأن النهج الفلسفي الذي ألف به في البلاغة قد وافق هوى فيمن جاءوا بعده؛ فوقعوا من كتابه على ما يشبه البغية، ويفتح لهم السبيل أن يبسطوا من سلطان تلك العلوم على البلاغة.

ولهذا رأيناهم قد انكبوا على (المفتاح)، بين شارح له وملخص، مع التحقيق لما حواه من مسائل المعقول، والشرح لما في عباراته من الإغلاق

والغموض، والإشكال والاضطراب، فكان ذلك صارفًا لهم عن جوهر الفن ولبابه، فلم يكن لهم فيه شيء يذكر بعد (السكاكي) ومفتاحه.

نعم شُغل هذا العصر بكتاب (المفتاح) وتلخيصه أيما شغل، وانحصر فيه هَمُّ العلماء من كل جيل، شغلهم لا في اليقظة فحسب، بل في المنام كذلك، فلم يكن وراءه مطمع في تجديد، ولا مأرب أو غاية لمستزيد؛ لأنهم رأوه آخر شوط في فن البلاغة، إليه انتهت، وبه ختمت، فلم يبق إلا خدمة هذا الكتاب، وما تولد من هذا الكتاب.

ويظهر أن الإغلاق والرمز أصبح طرفة هذا العصر، وأغرم به إلى حد بعيد، وذلك يفسر لنا موقفهم المتناقض من كتابي (الإيضاح) و(التلخيص)، ولِمَ أجلبوا على (التلخيص) بخيلهم ورجلهم، وتركوا (الإيضاح) بمضيعة يشكو الوحشة والإهمال؟.

فهم لم يهملوه إلا لوضوح منهجه، وسهولة عبارته، وقرب مأخذه، وهذا طابع لا يروق أهل التدقيق والتحقيق، فكان حظ (الإيضاح) كحظ (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة)، الإهمال والضياع، ولقي (المفتاح) و(التلخيص) كل رعاية وإقبال"[1].

نقد كلام الدكتور نايل والتعليق عليه :

هذا هو كلام (د/ نايل) عن (السكاكي) ومدرسته، وفي الحقيقة فهو كلام لا يستحق الرد عليه، فهو إما كلام مكرور نقلناه كثيرًا عن غيره، ممن

[1] البلاغة بين عهدين، د/ محمد نايل، ص١٢٨، ط: دار الفكر.

نهج نهجه وسار على دربه، أو كلام بدهي لا يستحق الرد عليه، وذلك حين عاب على الشراح شرحهم كتاب (تلخيص المفتاح) وإهمالهم كتاب (الإيضاح) للقزويني، ولو دقق أستاذنا العلامة في عنوان الكتابين لأدرك السبب دون أن يتحير.

على أن مؤلف الكتابين واحد _كما يعلم سيادته.

كما أن من العجيب أن يتهم البلاغيين بإهمالهم كتابي عبد القاهر، كيف وكتاب (السكاكي) نفسه قائم عليهما _كما نص هو على ذلك في سفره العظيم (مفتاح العلوم).

يقول صاحب كتاب (المنهاج الواضح) شيخنا، الأستاذ/ حامد عوني : "وبقي الأمر على هذه الحال حتى جاء فارس الحلبة أبو يعقوب يوسف (السكاكي)، المتوفى سنة (٦٢٦هـ)، فوضع كتابه (مفتاح العلوم)، وجعله ثلاثة أقسام، بسط في القسم الثالث منها مسائل المعاني والبيان بما سمح له أن يقول عن نفسه: إنه قضى بتوفيق الله منهما الوطر، ولم يكن حديث (السكاكي) في هذه المباحث كحديث عبد القاهر، فقد وضع حدودا استطاع بها أن يفصل بين هذه الأبحاث فخص ما يتعلق برعاية المطابقة لمقتضى الحال، باسم (المعاني)، وخص ما يتعلق بإيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة باسم (البيان)، وخص ما يتعلق بتحسين الكلام وتزيينه بعد رعاية المطابقة، ووضوح الدلالة باسم (البديع)، وقد كانت عند

(عبد القاهر) ومن تقدمه مجموعة في سمط واحد، وتحت موضوع واحد هو الكلام العربي من حيث إنه كيف يكون بليغا فصيحا، وعذبا رشيقا.

والكتاب غاية في الجودة وإن جفت عبارته وخلت من الإطناب الذي التزمه عبد القاهر، ومن الإكثار من الأمثلة والشواهد التي عول عليها الشيخ إلى حد بعيد، ولكنه -مع ذلك- رتب المباحث ترتيبا حسنا، وبوبها تبويبا جيدا، وحدد أنواعها، وضبطها ضبطا وفر به الجهد على من تصدى بعده للنظر فيها.

ولما في هذا الأثر الجليل من تمييز المسائل بعضها من بعض، وتحديد مباحث هذه العلوم تحديدا أنار السبيل للباحثين؛ عُد الإمام (السكاكي) واضع البلاغة في رأي كثير من البلغاء.

ومهما يكن من شيء، فقد أصبحت علوم البلاغة بعد (السكاكي) قائمة بذاتها، متميزة الموضوع، واضحة المنهج، قريبة المورد، واتية الجنى"[1].

والحق أن العلامة (السكاكي) _رحمه الله_ حُمّل ما لا يحتمل، إذ طلب منه أن يواكب بلاغة (عبد القاهر الجرجاني) _رحمه الله_ وأن يأتي بما يحاكي كتابيه على الأقل، إذا لم يستطع أن يتفوق عليه.

ومن هذه الجهة انهالت السهام عليه، ولو أُمعن النظر في صنيع (السكاكي)، وغايته منه، لما حُمل كل ذلك، ولأُحيل ذمه مدحًا، فهو لم يؤلف كتابه ليغير مسار البلاغة العربي، ويلبسها ثوب الجمود _كما زعموا_ ولم يكن هذا مقصدًا له على بال.

---

[1] المنهاج الواضح للبلاغة، حامد عوني، ص١٠، ١١، المكتبة الأزهرية للتراث.

وغاية ما هدف إليه، هو اختصار كلام الإمام (عبد القاهر)، وتصفيته من التكرار، وتقريبه لطلبة العلم، بوضع الحدود والرسوم، التي تضبط مباحثه، وتفصل مباحثه ومسائله؛ ليستقيم لطالب البلاغة الطريق، وتتضح أمامه الصورة، متى خاض غمار البيان، وأدلج في بحور تذوق الكلام، ولعل الذي حداه إلى ذلك ضعف الذوق العربي في العصور المتأخرة، فأراد بمنهجه الذي ابتدعه الإعانة على فهم البلاغة.

وأجدني مع الأستاذ الدكتور/فضل حسن عباس، حين يقول: "ورحم الله (السكاكي)، ونرجو أن يؤجر على هذه الحملات التي توجه إليه، فلقد حملوه مسؤولية جمود البلاغة، ووقوفها عند حال لا تحسد عليه، ولقد سبق (الرازي) (السكاكي) بزمن قليل، واختصر كتابي (عبد القاهر)، ولكن لم يكن لكتابه (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) تلك الشهرة التي لقيتها كتبه الأخرى، كتفسيره الكبير.

وهذا يدل على أن (السكاكي) كان أكثر موافقة لروح العصر الذي عاش فيها، وإلا فبِمَ تفسر إقبال الناس على كتابه (مفتاح لعلوم)، وبخاصة القسم الثالث منه الخاص بعلوم البلاغة، شرحًا واختصارًا ونظمًا؟!.

صحيح أن (السكاكي) سلب بلاغة (عبد القاهر) هذه السمات الأدبية، وهذا الأسلوب الذي يستند إلى الذوق والقاعدة معًا؛ ولكن ينبغي أن لا ننسى، ولا يجوز أن ننسى أن البلاغة كانت بحاجة إلى من يحدد لها مصطلحاتها تحديدًا تامًّا، ومن يفصل مسائلها، ويفصل بعضها عن بعض،

وتلك حسنة لا ينبغي أن تغفل، ولكن الكثيرين _سامحهم الله_ لا يذكرون إلا السلبيات"[١].

ولا أجد ما أختم به كلامي عن (السكاكي) أفضل مما كتبه الدكتور/ محمد أبو موسى، في كتابه القيم (البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري)، وعبارته هي: "لا يماري منصف في أن (أبا يعقوب) كان رجلاً قادر العقل، حاد الذهن، واسع الثقافة، متضلعًا في علوم شتى.

وكانت مباحث البلاغة تدرس قبله، وكأنها جذاذات من الورق، في كل قطعة منها مسألة، ويختلف ترتيب هذه المسائل في الكتب البلاغية، كما يختلف ترتيب هذه الجذاذات، قبل أن تمتد نحوها يد تنظِّم وتنسق.

وهذا واضح فيما كتبه (عبد القاهر الجرجاني)، وفيما نثره (الزمخشري) في الكشاف.

نعم، كان هناك إحساس بأواصر قوية بين الفنون المتصلة بدراسة الصورة البيانية، فكان يجمع التشبيه مع المجاز والكناية في نظام واحد، إلا أن هذا كان إحساسًا غائمًا، وقد يتخلف فتختلط المسائل، كما هو الحال في كتاب (دلائل الإعجاز).

---

[١] البلاغة المفترى عليها، بين الإصالة والتبعية، أ.د/ فضل حسن عباس، ص١٤٥، دار الفرقان، ط٢، ١٤٢٠هـ_ ١٩٩٩م، شرح الفوائد الغياثية للكرماني، مقدمة المحقق، تح: خليل علي بن دخيل، ط١، ١٤٢٤هـ، مكتبة العلوم والحكم، ص١٥٣.

وكان ذكر (الزمخشري) لعلمي المعاني والبيان إشارة بيِّنةٌ إلى تمييز هذه المسائل، وتصنيفها في هذين العلمين، وإن كان ذلك لم يتم على يده.

وكان من الخير _كما يرى (السكاكي)_ أن تضبط مسائل هذين العلمين، وأن تحدد تحديدًا بيِّنًا، وأن تميز تمييزًا واضحًا، فكان هو أول من فعل ذلك، فحدد أبواب (علم المعاني) وحصرها، وحدد أبواب (علم البيان) وحصرها؛ فأتم بذلك ما بدأ (الزمخشري).

وكان عجيبًا في تصوره لطريقة ضبط معاقد هذين العلمين، ورسمه لهما طريقًا يحيط بكل شعبهما، ووضعه لهما منهجًا يستوعب الأصول والفروع"[1].

إنه كلام يستحق أن يدرس لطلاب العلم الذين غابوا وغُيِّبوا عن ساحة البلاغة، بفضل أناس وضعوا آراءهم وبنوها على نظرات سطحية في كتب (السكاكي) ومدرسته، فخرّجوا لنا جيلاً يتمتع بطول اللسان والسب والقذف أكثر من تمتعه بالذوق الذي يبحثون عنه.

لولا هذه المدرسة ما تعلم الناس أصول البلاغة ورسومها الصحيحة؛ لأنهم هم الذين وضعوا الحدود التي ترشد القارئين إلى تعلم هذا الفن تعلّمًا صحيحًا، قائمًا على الرسوخ والتعمق، وهذا يؤهل المتعلم تلقائيًّا إلى النظر السليم إلى النصوص؛ فيستطيع تحليلها وتذوقها، مستعينًا في ذلك بكتب الأئمة الأعلام الأدباء، فيجمع بين تعلّم القاعدة وتذوق النص؛ وبهذا نُخرج

[1] البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، وأثرها في الدراسات البلاغية، ص٥٩٧، ط: مكتبة وهبة، ط٢، ١٤٠٨هـ_ ١٩٨٨م.

أدباء وبلاغيين، قادرون على إخراج نتاج فكري سليم، خالٍ من التعصب، ومليء بالذوق السليم الذي يبحث عنه عاشقو اللغة.

الخاتمة والتوصيات

وبعد .....

فقد ظهر بما لا يدع مجالا للشك كيف جند بعض البلاغيين أنفسهم للهجوم على العلامة السكاكي ومدرسته ، ونقد كل ما يصدر عن هذه المدرسة ، وتقزيم علمائها والنيل منهم .

فقد حاول بعض النقاد البلاغيين – وهم كثر – تنفير جيل بأكمله من السكاكي ومدرسته ، وإلقاء كل ما كتبه أصحاب الشروح والحواشي والتقارير في هوة سحيقة ، حاولوا مرات ومرات ، لكن هيهات لهم ذلك ، فقد ذهبوا وبقيت البلاغة ، وبقي السكاكي والتفتازاني والعصام والسبكي والشيرازي وغيرهم بالعشرات ، نتعلم من شروحهم وحواشيهم كما تعلمنا من كتب الشيخ عبد القاهر وابن سنان والآمدي .

لو أنصف هؤلاء – وهم لم ينصفوا _ وليتهم أنصفوا – لأدركوا أنه لولا كتب السكاكي ومدرسته ما قرأنا وما تعلمنا وما فهمنا ما كتبه الشيخ عبد القاهر ومدرسته ، وأنه لو لم يكن لهم من حسنات سوى ذلك لكفاهم .

على أن كتاب مفتاح العلوم للسكاكي وما تبعه من الشروح والحواشي والتقارير إنما هي درر البلاغة عند التأمل والصبر على قراءتها .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

دكتور / عبد المنعم السيد الشحات رزق
أستاذ ورئيس قسم البلاغة والنقد المساعد
كلية الدراسات الإسلامية – دمياط الجديدة

المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم.

ثانيًا: الكتب المطبوعة.

- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، محمد محمد حسين.
- الإسلام والتجديد في مصر، تشارلز آدمر، ترجمة: عباس محمود العقاد.
- إعجاز القرآن ونظمه عند السكاكي، أ.د/ فوزي السيد عبد ربه، ط١، ١٤٠٩هـ، مطبعة الحسين الإسلامية.
- أمالي علي عبد الرازق في علم البيان وتاريخه، ط١٣٣٠هـ.
- البحث البلاغي، روافده ومدارسه، د/محمود حسن مخلوف، مطبعة السلاموني.
- بغية الإيضاح للشيخ/ عبد المتعال الصعيدي، ط مكتبة الآداب، ١٤١٢هـ_١٩٩١م.
- بلاغة السكاكي، منهجًا وتطبيقًا.
- البلاغة العالية، علم البيان، الشيخ/ عبد المتعال الصعيدي، ط مكتبة الآداب، ١٤٢٠هـ.
- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، وأثرها في الدراسات البلاغية، ط: مكتبة وهبة، ط٢، ١٤٠٨هـ_ ١٩٨٨م.
- البلاغة المفترى عليها، بين الإصالة والتبعية، أ.د/ فضل حسن عباس، دار الفرقان، ط٢، ١٤٢٠هـ_ ١٩٩٩م.

- البلاغة بين عهدين، في ظلال الذوق الأدبي وتحت سلطان العلم النظري، د/ محمد نايل، دار الفكر العربي.
- البلاغة تطور وتاريخ، د/ شوقي ضيف، ط٧، دار المعارف.
- البلاغة عند السكاكي، د/ أحمد مطلوب، ط١، ١٩٦٤م، طبع بمطابع دار التضامن بلبنان، ط١.
- البلاغة والأسلوبية عند (السكاكي) ، د/ محمد صلاح زكي أبو حميدة، رسالة دكتوراه، ط١٤٢٨هـ.
- تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان.
- تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، أحمد مصطفى المراغي، ط مصطفى البابي الحلبي.
- حديث الأربعاء، د/ طه حسين، المجموعة الكاملة لمؤلفاته، ١٩/٢، ٢٠، ط دار الكتاب اللبنانى.
- دراسات بلاغية ونقدية، د/ أحمد مطلوب، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية.
- دلائل الإعجاز، للسيد/ محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- روضات الجنات.
- سر الفصاحة، للعلامة ابن سنان الخفاجي الحلبي (ت: ٤٦٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٢هـ_١٩٨٢م.
- شرح الفوائد الغياثية للكرماني، تح: خليل علي بن دخيل، ط١، ١٤٢٤هـ، مكتبة العلوم والحكم،

- شرح المؤذني على مفتاح العلوم للسكاكي، لحسام الدين المؤذني الخوارزمي، مخطوط، المكتبة الأزهرية، رقم: ١١٤٩ خاص_٤٣٦٠ عام، بلاغة .
- شرح مفتاح العلوم، المسمى (المصباح)، للسيد الشريف الجرجاني، دكتوراه، تحقيق أستاذنا، أ.د/ فريد محمد بدوي النكلاوي، ١٩٩٧٧م.
- شرح مفتاح العلوم، المسمى (مفتاح المفتاح)، للعلامة الشيرازي، تحقيقًا ودراسة ونقدًا، لأستاذنا، الأستاذ الدكتور/نزيه عبد الحميد السيد فراج.
- علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع»، أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ)، المكتبة المحمودية التجارية، مصر، ط٦.
- القاموس المحيط.
- القزويني وشروح التلخيص، طبعة دار التضامن بلبنان.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ)، دار الريان، ط٣، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
- مدخل إلى كتابَي عبد القاهر، أ.د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط١، ١٤١٨هـ_١٩٩٨م.
- مذاهب فكرية في الميزان، د/ علاء بكر، ط دار العقيدة. والفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي، د/ محمد البهي، ص٢٦٥.

- المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، لسعد الدين التفتازاني (ت٧٩٢هـ)، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت_لبنان، ط٢، ١٤٢٨هـ_٢٠٠٧م.
- معجم الأدباء=إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت:٦٢٦هـ)، تح: : إحسان عباس. دار الغرب الإسلامي، بيروت ط١، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م.
- معجم المطبوعات، يوسف سركيس.
- مفتاح العلوم للسكاكي، تح: نعيم زرزور، ط: دار الكتب العلمية. ط البابي الحلبي
- مقدمة ابن خلدون.
- المنهاج الواضح للبلاغة، حامد عوني، المكتبة الأزهرية للتراث.

ثالثًا: الكتب المخطوطة:

٣٩_شرح التفتازاني على القسم الثالث من مفتاح العلوم، لسعد الدين التفتازاني، مخطوط رقم ٢٣٥٢/٥٦٦٤٣ .

رابعًا: الرسائل العلمية والدوريات.

٤٠_الأطول لعصام الدين الإسفراييني، تحقيقًا ودراسة، د/ عبد المنعم رزق.

٤١_بلاغة السكاكي، منهجًا وتطبيقًا، د/ أحمد محمد علي، دكتوراه، في كلية اللغة العربية بالقاهرة، مخطوط تحت رقم ١٩٤٩.

٤٢_الذوق البلاغي عند السكاكي، د/محمد أحمد محمد أبو نبوت، بحث نشر في مجلة كلية اللغة العربية، العدد الحادي والعشرون، ١٤٢٤هـ_ ٢٠٠٣م،

فهرس الموضوعات

ملخص البحث

تقديم لا مفر منه

خطة البحث

الفصل الأول

(قراءة في حياة السكاكي)

*السكاكي في أول حياته

*عمل (السكاكي) سبب شهرته

*تنوع ثقافة (السكاكي) وقلة مؤلفاته

الفصل الثاني

(قراءة في منهج السكاكي)

*تقديم لا مفر منه

*تقديم (السكاكي) لكتابه وبيان منهجه

*رأي حسام الدين المؤذني

*رأي العلامة (السيد الشريف الجرجاني) في (شرح مفتاح العلوم)

*رأي العلامة (الشيرازي) في كتابه: (مفتاح المفتاح) شرح مفتاح العلوم

*نص كلام السكاكي في المفتاح

*منهج (السكاكي) في المفتاح

*رأي التفتازاني في منهج السكاكي في مفتاح العلوم

*خلاصة القول

الفصل الثالث

السكاكي في كتابات البلاغيين المحدثين

*مدخل لابد منه

١_السكاكي ومدرسته في كتابات الدكتور مطلوب:

*رأي الدكتورة/ سهير القلماوي في كلام الدكتور/ مطلوب، عن (السكاكي):

- تعليقنا علي كلام الدكتورة سهير القلماوي

*نقد كلام الدكتور/مطلوب، في رسالة الماجستير، (البلاغة عند السكاكي)، والرد عليه

- التعليق والرد

*ويقول أستاذنا الدكتور/مطلوب

التعليق والرد

* ويقول أستاذنا (د/مطلوب)

التعليق والرد

* عود إلى كلام الدكتور مطلوب ومزاعم التجديد

* كلام الشيخ رشيد رضا عن التجديد وسبب إحجام العلماء عن تدريس كتابي الشيخ عبد القاهر

* استشهاد الدكتور مطلوب بمؤلفات للتجديد البلاغي من وجهة نظره ونقدها

* تعليق ورد ونقد

* الشيخ المراغي ونقد مدرسة السكاكي من وجهة نظر الدكتور مطلوب

* من حديث الدكتور مطلوب عن منهجه في كتابه (البلاغة عند السكاكي)

* تعليق ونقد ورد

* تجريد الدكتور مطلوب السكاكي من أي جهد بلاغي

* الرد والتعليق على كلام الدكتور مطلوب

* السبب في هجوم الدكتور مطلوب من كلامه هو

* تعليق ونقد

* نقد الدكتور مطلوب ثقافة السكاكي

* رد وتعليق

* مدح للسكاكي يراد به الذم

* تأثر السكاكي بمنهج الأمير ابن سنان الخفاجي صاحب كتاب (سر الفصاحة)

* شخصية السكاكي ورأي الدكتور مطلوب

* تعليق على كلام الدكتور مطلوب

* أسلوب السكاكي من وجهة نظر الدكتور مطلوب
* تعليق ورد وتعديل ونقد
* نقد الدكتور مطلوب أحد تلاميذ السكاكي العلامة (عصام الدين الإسفراييني) وتجريده من كل فضيلة
* الرد علي اتهامات الدكتور مطلوب للعصام تلميذ السكاكي
* نقد الدكتور مطلوب للسكاكي ومدرسته في كل كتبه

٢_السكاكي ومدرسته في كتابات الشيخ عبد المتعال الصعيدي:

* نقد الشيخ الصعيدي للسكاكي في مفتتح (بغية الإيضاح)
* ثم بيّن سبب تأليفه (بغية الإيضاح) ناقدًا الشروح والحواشي
* تعليق ورد ونقد
* رأي الدكتور طه حسين
* الشيخ الصعيدي ينقد السكاكي في البلاغة العالية
* رد وتعليق

٣_ السكاكي في كتابات الشيخ المراغي:

* رد وتعليق
* سبب إقحام الاستدلال في البلاغة من وجهة نظر شارح المفتاح الشيرازي
* رأي السيد الشريف في شرح المفتاح

* التعليق علي كلام شراح المفتاح
* الشيخ المراغي يعود ويمدح السكاكي بعد نقده
* التعليق على مدح الشيخ المراغي للسكاكي
* نقد الشيخ المراغي للقزويني
* رأي الشيخ المراغي في الشروح والحواشي بعد السكاكي
* التعليق والرد علي نقد الشروح والحواشي
* يقول الشيخ (المراغي) مسفّهًا هذه الحواشي

٤_ (السكاكي) في كتابات الدكتور/ شوقي ضيف:

* نقد الدكتور شوقي ضيف للسكاكي ومدرسته
* تعليق ونقد

٥_(السكاكي) في كتابات الشيخ (علي عبد الرازق):

* تعليق ورد على كلام الشيخ علي عبد الرازق
* التعليق على كلام أستاذنا الدكتور / محمد أبو موسى

٦_السكاكي في كتابات الدكتور/ محمد نايل:

* نقد كلام الدكتور نايل والتعليق عليه
* يقول صاحب كتاب (المنهاج الواضح) شيخنا، الأستاذ/ حامد عوني

* ما كتبه الدكتور/ محمد أبو موسى، في كتابه القيم (البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري)

الخاتمة والتوصيات

المصادر والمراجع

فهرس الموضوعات